منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1831)السنة السابعة -السبت (26) حزيران 2010

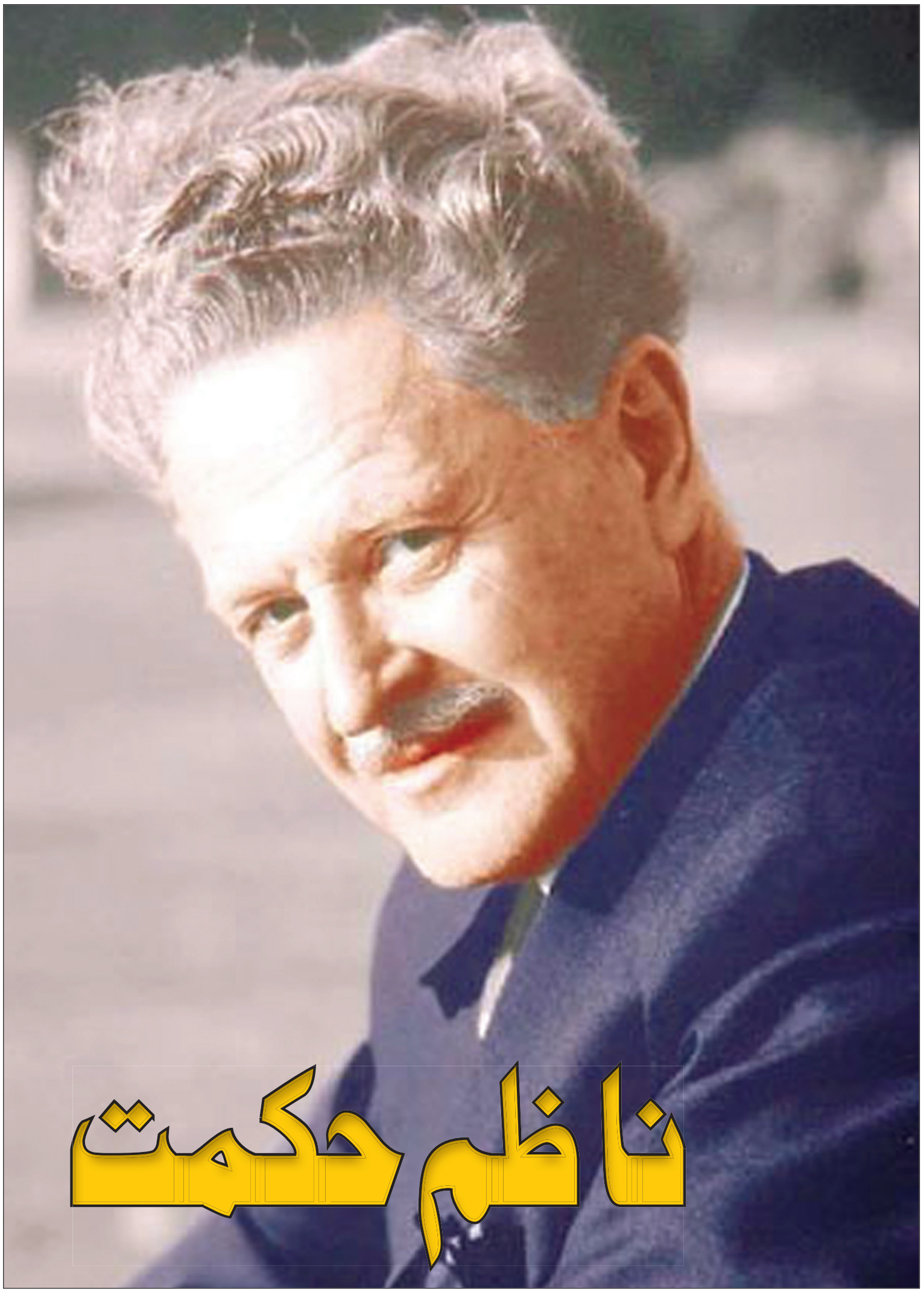

2

الحياة من اجل الحرية والعدالة

5

ناظم حكمت
١٩٠٢-١٩٦٢

10

ناظم حكمت..
طفولة بين عالمين

ناظم حكمت

الحياة من اجل الحرية والعدالة

هذه الندوة التي عقدت على هامش مهرجان الشعر العالمي في القاهرة وخصصت للشاعر الكبير ناظم حكمت وقد بثتها قناة الجزيرة ننشرها لاهميتها في تسليط الضوء على حياة ناظم حكمت الادبية والسياسية

شارك في الندوة

- عبد الوهاب المسيري / كاتب وناقد

- أحمد عبد المعطي حجازي / شاعر

- بشير نافع / أستاذ تاريخ إسلامي د.

محمدكوزولوغول / عضو لجنة مركزية في الحزب الشيوعي التركي

×عام ١٩٠٢ ولد في سولينيكي المدينة التي كانت عثمانية وتقع في شمال اليونان اليوم شاعر مهم بل ومهم جدا، أثّر في الأدب العربي وفي الأدباء العرب كما لم يؤثر شاعر غير عربي آخر لقرون، شهد ناظم حكمت الولادة الحقيقية لذلك القرن العجيب، القرون لا تبتدئ بالسنين ذات الصفرين أو أكثر، فذاك حساب الفلك والترقيم، حساب الإنسان والحدث وتقلبات الحياة والوجدان والمزاج بدأ القرن الجديد بدايته الحقيقية بين ١٩١٧ و١٩١٨، كانت هناك حرب كونية تنتمي إلى القرن التاسع عشر قد اندلعت عام ١٩١٤ لينتج عن محرقتها قرن جديد، الشاعر التركي ناظم حكمت مولود عائلة أرستقراطية، يقول في إحدى قصائده إنه عندما كان في الثالثة كانت وظيفته في الحياة هي أن يكون حفيد ناظم باشا عمدة حلب، أمه أرستقراطية أيضا والدها أنور باشا شخصية عثمانية لامعة، أبوه دبلوماسي، أمه رسامة وعازفة بيانو، هذه صور لناظم رسمتها أمه، في صباه تشبّع ناظم حكمت بحب الأناشيد الصوفية، عرف الإيقاع والشعر من أفواه الطرق المولوية، انداحت أناشيد التكايا والأوراد وحلقات الذكر في وجدانه وشكلت وعيا شعريا ذا نكهة لم تفارقه وأن اغترب وتغرب وصار شيوعيا، هل يمكن تلمّس ما صدحت به أناشيد الدراويش في شعره؟ ثم كيف يظل طعم التصوف في شعر شيوعي.

التصوف عند ناظم حكمت

عبد الوهاب المسيري : أنا لي نظرية في التصوف أن التصوف يمكن أن يؤدي إلى الاستسلام والإذعان ويمكن أن يؤدي أيضا إلى الثورة، بمعنى أن الثورات اللي بيسموها بالإنجليزية (كلمة بلغة أجنبية) والتي يمكن أن نسميها بالعربية المهداوية التي تطرح فكرة أن إحنا وصلنا إلى نهاية التاريخ وأنه امتلأ العالم ظلما ولابد أن يأتي المخلص ليحرر العالم من الظلم، هذه النزعة موجودة في الحركات الصوفية وأخذت شكل ثورة الشيخ بدر الدين الذي تحدى الخلافة وجمع الناس بقى سواء كانوا من المسلمين أو المسيحيين أم من الأرمن كل الجوعى والفقراء التفوا وراءه وهزم الخلافة العثمانية في بعض المعارك لكن نتيجة لخيانة بعض الأتباع تم القضاء عليه، هذه الملحمة يعني هي نتاج هذه الرؤية الصوفية في نزوعها الثوري.

أحمد عبد المعطي حجازي-: التصوف في حقيقته رؤية للعالم توحّد عناصر العالم وتوحّد أشيائه ومظاهره وكائناته وبالتالي يجد الشاعر نفسه متحدا به في هذا العالم وذلك نستطيع أن نتذكر وأن نستعيد الأبيات الجميلة التي قرأناها لأبن عربي، لقد صار قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان وبيت لأوثان وألواح توراة إلى آخره، ناظم حكمت متصوف بهذا المعنى لأنه ناظم حكمت كان يقدّس العالم وأظن أني يعني ما زلت أذكر أبيات يقول فيها أنه يقدّس الأرض، أن الأرض يعني يتحدث عن الأرض ليس باعتبارها كوكبا وإنما باعتبارها سكنا شخصيا، كأن الأرض هي منزله الشخصي، كأنها غرفة نومه وكأن أشياءها هي أشياؤه يعني التي ألفها والتي يحن إليها إلى آخره، هذا الشعور تجاه الأرض تجاه الكون وتجاه الإنسان تجاه البشر هو الذي نقول أن تعبير عن موقف صوفي من ناظم حكمت بالرغم من أننا نعلم علم اليقين أن ناظم حكمت شاعر شيوعي.

×انخرط ناظم حكمت الصغير في البحرية التركية وحاول الانضمام إلى معركة تحرير تركيا، ما كان هناك تركي لم يحاول الانخراط في قوات التحرير التي يحمل لواءها مصطفى كمال أتاتورك الذي نهض بعبء تحرير الاناضول واسطنبول ودحر اليونانيين وحلفاءهم من القوى الغربية، كانت تركيا (كلمة غير مفهومة) تحت نير قوى الاحتلال الكبرى وهناك اليونانيون طلاب ثأر قديم يحاولون تهشيم تركيا، هنا برز أتاتورك قائدا ملهما وشجاعا ظل ايقونة في قلب الأتراك لم يكن أتاتورك مجرد منقض على الخلافة هادم للثقافة الإسلامية بل هو أكبر من ذلك بكثير.

النضال ضد المحتل والاتجاه للشيوعية

بشير نافع –: الذي يرى في العالم العربي من أتاتورك دائما ويعاد التفكير عليه ترك هو الذي قاد حركة العلمنة والتغريب وإلغاء الحرف العربي وإخراج تركيا من محيطها ومن خلفيتها الإسلامية ولكن طبعا هذه نظرة تحليلية تبسيطية لهذا الرجل، أولا يعني ينبغي أن ندرك أن المشروع التحديثي الذي قاده أتاتورك في تركيا لم يكن أتاتورك مبتدعا له وإنما هذا المشروع مشروع التحديث وإدخال المؤسسات الغربية نموذج المؤسسات الغربية إلى الحياة العثمانية هذا قد بدأ منذ منتصف القرن التاسع عشر منذ يعني السنوات الأخيرة للسلطان محمود الثاني وثم تسارع بعد ذلك في الخمسينات والستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر ولم يتوقف هذا حتى في عصر السلطان عبد الحميد الذي كان بلا شك معاديا للإمبريالية ومليئا بالشكوك تجاه الإمبراطوريات الغربية، لكن مشروع التحديث استمر على قدم وساق تحويل الدولة العثمانية إلى دولة مركزية، تحديث التعليم بمعنى استعارة الأنموذج الغربيس في التعليم تحديث القانون بمعنى استعارة النموذج الغربي في القانون، هذا الأمر بدأ على قدم وساق منذ بداية ما يعرف بالتاريخ العثماني لعصر التنظيمات اللي هو ١٨٤٠، أتاتورك أيضا ينبغي أن ينظر إليه بمعنى أن صعوده لم يأتي بمؤامرة، ليست هناك ليست قوى خارجية التي أتت بأتاتورك وصعدته إلى هذا الموقع وأعطته ولاء شعب التركي وأعطته هذا الموقع القيادي، لا في الحقيقة أتاتورك كان ضابط جيد ومخلص للدولة، أبلى بلاء حسنا طوال سنوات الحرب الأربع من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ قاتل في الدردنيل، قاتل في البلقان وقاتل المهمة الأخيرة له كانت طبعا قيادته للجبهة في فلسطين ضد القوات البريطانية المتقدمة، في ١٩١٩ بعد هدنة (كلمة غير مفهومة) في أكتوبر ١٩١٨ أرسل إلى (كلمة غير مفهومة) حتى يقود المنطقة العسكرية هناك ولكنه كان غاضب غضب شديد جدا على اتفاقية الهدنة وبدأ يلاحظ كيف أن دولة كانت جزء من الدولة العثمانية اللي هيه اليونان بدأت ترسل قواتها الآن إلى الأناضول وتحاول أن تحتل منطقة الأناضول وتعزز قواتها في منطقة أزمير فاستقال من منصبه وتوجه في ١٩١٩ إلى الأناضول وبدأت هناك العشائر وبقايا القوات وبعض الضباط الصغار الموالين له يلتفون حوله وحول جمعية الدفاع عن الأناضول والرومانيين الذي أسسها أيدت حركة المقاومة في الأناضول.

حسين صالح: تشكل شاعرنا في ذاك الزمن الحرج، هنا لابد من وقفة لإيضاح كيف أمتزج النضال ضد المحتل بالحركة الشيوعية، تركيا اليوم هي تركيا أتاتورك، يسوقها منذ عقود فكر مقتنع بأن الحلول كل الحلول يجب أن تطلب من الغرب، أتاتورك استورد مشروعا غربيا لكن الفكر الغربي لا يحمل الرأسمالية وحسب بل فيه شيوعية، في مصر هناك حلو كذبة ابريل، شيكولاتة فيها فصوص ثوم لم يكن الفكر المستورد حلوا خالصا ما جاء لأتاتورك من الغرب كان طردا ملغوما، نما في تركيا العشرينات تيار شيوعي التحق به حكمت ومكث فيه حتى مات.

محمد كوزولوغل- عضو لجنة مركزية في الحزب الشيوعي التركي: في أواخر العصر العثماني أي في فترة انهيار الإمبراطورية ظهرت طبقة من المثقفين المرتبطة بدرجة كبيرة في القسم الأرستقراطي من العثمانيين والتي شعرت بالحاجة وبذلت الجهد لتحديد وتعريف وضعها الطبقي ومجال نشاطها وتحركها داخل المجتمع خلال مسيرة تشكيل البنية الطبقية التي كانت ستحل محل الدولة العثمانية المنهارة وكانت طبقة العمال الماركسيين هي التي لبت هذه الحاجة بالدرجة الأولى في المرحلة الأولى أي ما قبل استقرار النظام الجديد في تركيا وكان عدد كبير من أفراد طبقة المثقفين الساعية للتغيير من الطبقة البرجوازية ومن أبناء الباشوات وناظم نفسه هو حفيد وابن أحد الباشوات وكان من بين أفراد هذه الطبقة أيضا من أختار الطبقة العمالية والماركسية وفي هذه المرحلة التي شهدت تحولات طبقية جبرية

تشكل شاعرنا في ذاك الزمن الحرج، هنا لابد من وقفة لايضاح كيف أمتزج النضال ضد المحتل بالحركة الشيوعية، تركيا اليوم هي تركيا أتاتورك، يسوقها منذ عقود فكر مقتنع بأن الحلول كل الحلول يجب أن تطلب من الغرب، أتاتورك استورد مشروعا غربيا لكن الفكر الغربي لا يحمل الرأسمالية وحسب بل فيه شيوعية، في مصر هناك حلو كذبة ابريل، شيكولاتة فيها فصوص ثوم لم يكن الفكر المستورد حلوا خالصا ما جاء لأتاتورك من الغرب كان طردا ملغوما

هامة يمكننا رؤية أن بعض الجماعات الطبقية بقيت حائرة غير محددة وهذا ما ينطبق على المثقفين بشكل خاص وبدأت جماعة من المثقفين المنحدرين من أصول برجوازية في البحث عن إطار طبقي جديد ومشروع اجتماعي جديد وناظم حكمت كان من هذه الجماعة.

×ثمة كتاب مهم صدر حديثا عن حكمت، يشخّص الشاعر ببساطة رومانسيا شيوعيا، في المقدمة التي كتبها الشاعر الروسي الكبير فيكتور يوتشينكو وهو من أهم المتأثرين بناظم حكمت يقول يوتشينكو أن الشيوعية ليست جذابة بمقدار ما أن الرأسمالية بشعة، الفقر المضجع الذي شاهده سليل الباشوات عزز حماسه للاشتراكية ثم الشيوعية، في قصر الباشا كانت الحكايات والرسوم تظهر القرويين على أنهم بسطاء، سعداء، خدودهم حمراء تتفجر عافية، جبهاتهم تلفحها شمس الصحة، لم ير ناظم أيا منها، أحب الفقراء وانتمى إليهم ورأى في الشيوعية وسيلة لإسعادهم.

عبد الوهاب المسيري: هي الشيوعية أو الماركسية فيها انقسام والانقسام ده هو الذي أطاح بها في نهاية الأمر، أنه منطلقات ماركس كانت منطلقات إنسانية بمعنى أنها تجعل الإنسان مطلق ومركز الكون، هيومانست وفي نفس الوقت مادية علمية ومن الناحية المادية ما فيش شيء اسمه مركز إنساني المادة هي مركز العالم فكثير من مثقفي العالم الثالث الذين لم يجدوا حل في الفلسفات القومية الشوفونية أو حتى الفلسفات القومية العلمانية ولم يجدوا حل في الرؤى الدينية لأنها لم تكن قد طورت بعد رؤية اجتماعية، اتجهوا إلى الماركسية في منحاها الإنساني وهذا المنحى الإنساني رومانتيكي لسبب بسيط أن المنحى الإنساني بيعنى الإنسان هو مطلق، لابد أن يتجاوز المادة، لابد أن يتجاوز ظروفه، لابد أن يتجاوز اللحظة التاريخية وأن يحلم بعالم أفضل، من يستطيع أن يحلم لابد أن يكون رومانسي، ناظم حكمت هو ثمرة أو صدر عن الرؤية الإنسانية الماركسية التي ترى الإنسان مركزا للعالم والتي تطرح قيم مثل العدالة والتراحم والمساواة والحرب ضد الاستغلال وضد الاستعمار ومن هنا بالمناسبة أنا بأعتقد كان تأثيره العميق على كثير من مثقفي العالم الثالث في الخمسينيات والستينيات وأنا أزعم أنني واحد منهم لسبب بسيط بأتذكر في الستينيات يعني بالفعل كانت مسألة طريفة جدا أن تقريبا يعني مسألة الإسلاميين ما كانش عندهم مثقفين بهذا المعنى كان يوجد شيوخ أفاضل فقهاء، لكن كلهم لم يكونوا جزء من الحركة الثقافية، بمعنى أن فكرة المفكر أو المثقف الإسلامي لم تظهر الا في السبعينيات قبل ذلك كنا جميعنا من اليساريين باستثناء بعض أشباه المثقفين من عملاء الولايات المتحدة والاستعمار الغربي وهكذا، مثلا حينما تفكر في نجيب محفوظ، توفيق الحكيم، الجميع كان ان لم يكن يساريا على الأقل عنده توجهات يمكن أن نطلق عليها أنها كان توجهات يسارية.

تأثره بالتجربة السوفياتية وبداياته الشعرية

×: في عام ١٩٢١ تسلل ناظم إلى الاتحاد السوفيتي ليدرس ويتلمس التجربة السوفيتية، كان محظوظا جدا وسعيدا جدا، روسيا لينين تعيش سنوات السحر والإبداع، مثقفوا العالم تقاطروا على موسكو ليشربوا نخب الثورة البلشفية، وفدت ايزادورا دنكن لترقص حافية عارية للجيش الأحمر في لحظات نشوة بتهشيم القرن التاسع عشر وتكوين القرن الجديد، المخرج الروسي ليطلق أجمل أفلام السينما توافق ميلاد فن السينما والدولة الشيوعية نما الاثنين معا وصارت سينما حاضنة للفن الطليعي، هنا مسته حُمى التغيير وتلبسته روح الأفنغات فانتمى بكل وجدانه إلى الشعر الحديث وصار امتدادا مهما لحركة شعرية انقضّت على الأشكال التقليدية كانت بدأت في تركيا قبل الدول العربية بثلاثة عقود.

أحمد عبد المعطي حجازي: عندما بدأ شعر ناظم حكمت ليترجم إلى اللغة العربية أظن في أوائل الخمسينيات أنا قرأت في أواسط الخمسينيات بترجمة أظن ترجمة لبنانية ترجمة عربية أنجزها مترجم لبناني ممتاز لعله يكون الدكتور على سعد، عندما تُرجم ناظم حكمت يعني أجاب على السؤال الذي كان مطروحا علينا نحن الشعراء المجددين وهو هل يستطيع الشعر أن يفعل ما تفعله القصة القصيرة أو الرواية؟ هل يستطيع أن يصف؟ هل يستطيع أن يجسّد الأحلام البسيطة والترددات؟ يعني الشعر دائما في الماضي كان لغة الإيمان، لغة القطع، هل يستطيع الشعر أن يكون لغة شك ولغة تردد؟ هل يستطيع أن يكون لغة ضعف إنساني؟ هل يستطيع أن يكون لغة بشر عاديين يسيرون في الشوارع ويركبون الترام مثلا ويترددون على المطاعم والمقاهي يتعرضون للفصل من العمل، للبطالة ويعترفون بفشلهم هذا هو السؤال الذي كان مطروحا وقد أظن أن الشعراء العرب وجدوا في شعر ناظم حكمت جوابا إيجابيا على هذا السؤال، لأنه قال لهم نعم الشعر يستطيع أن يكون لغة هؤلاء جميعا.

تعرضه للسجن.. إلغاء الحرف العربي وآثاره

×: عاد حكمت إلى تركيا ليجد بطله أتاتورك قد تحوّل من مناضل إلى حاكم قوي، أعطى لنفسه حق التحكم في الذاكرة والموروث، منح الضابط الفذ نفسه حق تقرير ما تكون عليه أحوال الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والتشريع واللغة وحتى ألف باء الكتابة، عاد إلى تركيا صيف ١٩٢٨ وأعتقل لحظة دخوله البلاد ليمضي بضعة أسابيع في السجن، دخلت تركيا قبل ثلاثة اشهر فقط من إعلان أتاتورك إلغاء الكتابة بالأبجدية العربية وبدء العمل بالأبجدية اللاتينية التي اصطنعت خصيصا لتركيا وصارت تعرف بالأبجدية الكمالية، هكذا وبمرسوم رئاسي صار على التركي ألا يقرأ ما هو منقوش على جدران الجوامع أو شاهد قبر أبيه، الكتابة ليست بين دفات الكتب، الحرف العربي منظور في الحياة ولكن كيف يتعامل الشاعر والحرف عدته وآلته مع حرف جديد.

عبد الوهاب المسيري: كانت هذه مسألة تستحق التأمل، يعني هو طبعا غباء كمال أتاتورك الشديد هو الذي أدى به إلى ذلك لأنه لم يفهم أنك لو كتبت لغتك بحروف أخرى ستفقد التراث تماما أو يعني عندما أذهب إلى اسطنبول والمرشد السياحي يعرف أنني أعرف العربية يشعر بحزن شديد لأنه يطلب مني أن اقرأ الآيات المكتوبة على جدران المساجد، يعني وأعتقد ده سبب حزن الشعب التركي الآن أنه فقد تراثه وأنا دائما أحذّر المصريين أنهم لو تبنوا العامية بدل الفصحى

عاد حكمت إلى تركيا ليجد بطله أتاتورك قد تحوّل من مناضل إلى حاكم قوي، أعطى لنفسه حق التحكم في الذاكرة والموروث، منح الضابط الفذ نفسه حق تقرير ما تكون عليه أحوال الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والتشريع واللغة وحتى ألف باء الكتابة، عاد إلى تركيا صيف ١٩٢٨ وأعتقل لحظة دخوله البلاد ليمضي بضعة أسابيع في السجن، دخلت تركيا قبل ثلاثة اشهر فقط من إعلان أتاتورك إلغاء الكتابة بالأبجدية العربية وبدء العمل بالأبجدية اللاتينية التي اصطنعت خصيصا لتركيا وصارت تعرف بالأبجدية الكمالية، هكذا وبمرسوم رئاسي صار على التركي ألا يقرأ ما هو منقوش على جدران الجوامع أو شاهد قبر أبيه

إذا فكلاسيكيتينا ستكون شكوكو وإسماعيل ياسين وسنفقد امرؤ القيس والبحتري والقرآن سيصبح مغلق بالنسبة لنا والمتنبي وابن خلدون وكل هؤلاء سيصبحون مغلقين ونتغنى بشكوكه وإسماعيل ياسين.

×: أتاح له السجن أن يحيا ويصحو ويأكل وينام ضمن مساحة ضيقة مع المدقعين جياع والمجرمين الذين طالما دافع عنهم، الغريب أنه ازداد حبا لهم كانت نوبة الاعتقال الأولى مقدمة لفترات سجن لازمته منذ عودته إلى تركيا حتى في فراره منها عام ١٩٥٢، ازداد شعره توجها وبساطة، الكتابة من وراء القضبان جعلته أقرب إلى الحياة خارج بوابات السجن، اتضح في شعره فهم يبدو بسيطا لكنه في الواقع أكثر نقاء، شعر صاف لا شعر بسيط إذا توخينا الدقة.

أحمد عبد المعطي حجازي: لا شك أن ناظم حكمت لم يكن يستطيع أن يقول شعره الذي قاله الذي نقرأه الآن باللغة العثمانية القديمة يعني اللغة العثمانية، يعني بثقافة الإمبراطورية المقدسة، الإمبراطورية الدينية، حيث الدين هو الرابطة الأولى التي قامت عليها والقاعدة التي قام عليها الحكم وقام عليها القانون وبالتالى العلم والثقافة والشعر الأدب، اللغة العثمانية التركية العثمانية لم تكن تستطيع أن تستجيب لشاعر شيوعي، يعني لشاعر يمثل ثقافة مختلفة على النقيض من ثقافة الإمبراطورية العثمانية من هنا كان لابد له أن يستخدم اللغة التركية العادية، لغة الشارع، لغة القرية التركية، لغة الأحياء الشعبية في اسطنبول.

×: في السنوات العشر الواقعة بين ١٩٢٨ و١٩٣٨ سُجن حكمت لمرات ومرات حتى أن مؤرخي سيرته يقولون أنه كان يدخل السجن ويخرج منه مرات لا نتعب نفسنا بإحصائها لكن عام ١٩٣٨ شهد تحولا جديدا في إيقاع السجن والحرية، ادخل حكمت سجون تركيا في أنقرة ثم اسطنبول ثم بورصا، ثم أعيد إلى سجن اسطنبول، ظل سجينا حتى عام ١٩٥٠، في سجن بورصا ظل ناظم حكمت سجينا رفاقه سفلة الأناضول وأوغادها، هناك تفرغ لصغار الأشرار والمجرمين وراح يعلم ويؤسس مؤمنا أن في كل إنسان ينبوع خير، ما زال أحد الأوغاد الذين غيرهم حكمت يعيش اليوم في قرية قرب بورصا اسمها مشكلة، يروي الشيخ المُصلح كيف أنه غرس شجرة في قريته وأسماها ناظم حكمت، ثم كيف أن السلطات اقتلعت الشجرة لكن الفلاحين انتصروا بأن غرزوا عشرات الأشجار وأسموها حكمت ولم يبوحوا لأحد بمكانها، السلطة لا تستطيع قطع كل الأشجار وهكذا هناك اليوم في الأناضول أشجار وأشجار اسمها ناظم حكمت، ما علينا في عام ١٩٥٠ أي بعد سجن امتد لأكثر من ١٢ عاما وصل إلى السلطة عدنان (كلمة غير مفهومة) ما كان (كلمة غير مفهومة) أقل عداء للشيوعية لكنه أكثر تملقا لليبرالية الغربية وفي حُمى تملق الغرب وافق على إفراغ المعتقلات من الشيوعيين.

بشير نافع: في سنة ١٩٥٠ استطاع الحزب الديمقراطي المعارض أن يكسب الانتخابات أن يحكم تركيا في الحقيقة من عام ١٩٥٠ حتى الانقلاب العسكري عام ١٩٦٠ برئاسة عدنان (كلمة غير مفهومة) لم تغير فكرة التوجه الغربي في هذه الفترة بالعكس ازداد تركيز التوجه الغربي لتركيا ولكنه أفسح المجال لبعض التعبيرات الإسلامية، مدارس الأئمة والسماح بالحج وأعاد الأذان باللغة العربية وبعض هذه المظاهر لمحاولة تخفيف الاحتقان اللي كان يتزايد طوال عصر أتاتورك والحرب الشرسة والشاملة التي كان قادها أتاتورك على الإسلام وعلى مظاهر التدين والولاء للإسلام في داخل المجتمع التركي فعصمت (كلمة غير مفهومة) خسر من عام ١٩٥٠ خسر موقعه القيادي وأن استمر نشطا سياسيا تحت بعد ذلك.

×: بينما كان في السجن دارت رحى حرب جبارة، مات فيها عشرات الملايين، لم تنته الحرب عام ١٩٤٥ بل استمرت حربا باردة بين الرأسمالية والشيوعية، واحدة من الحروب القاسية التي استخدم الطرفان فيها كل العدد الأدبية والفنية والمالية، صار الشعر سلاحا، صار الفن سلاحا، تحزّب الشيوعيون للواقعية الاشتراكية ومولت الـ (CIA) قيم الفنون التجريدية والعدمية وسخّرت فن السينما لاصطناع أيقونات من الجواسيس ورجال الاستخبارات، ظهرت مجموعات شعرية ممولة أميركيا تحمل اسم حوار أو (كلمة بلغة أجنبية)، في الشعر العربي تأثر اليمنيون بالشعر الأميركي ايليوت بينما صار حكمت ومن ثم بابلو ناجون أيقونات يسارية تأثر بهما شعراء مثل عبد الوهاب البياتي، كانت الغلبة فيما يبدو لاتباع حكمت، لا لأنه شيوعي وحسب بل لأنه إنساني، أني، يحمل شعره دلالات لا تبتعد كثيرا عن حياة يومه، أي حياة يومنا.

أحمد عبد المعطي حجازي: يعني هو طبعا بالذات في أواخر الخمسينيات كانت التيارات ذات الطابع الثوري في الأدب سواء في الشعر أو في الرواية أو في القصة القصيرة أو في المسرح أو في النقد كان لها الغلبة ولم تكن لها الغلبة في مصر فحسب كانت لها الغلبة في المنطقة العربية كلها، لأن المناخ لم يكن ثوريا في مصر وحدها إنما كان مناخ ثوري في مصر وفي الجزائر وفي سوريا وفي لبنان وفي العراق وفي الجزيرة العربية، في المناطق التي كانت تحتلها إنجلترا وهكذا، من هنا كان يعني اضطرت القوى الغربية وبالذات الأجهزة الأميركية الداخلة في الحرب الباردة أن تستخدم الثقافة في هذه الحرب ونحن نعلم أنشئت مجلات (كلمة بلغة أجنبية) مثلا الإنجليزية والحوار العربية في بيروت التي كان يرأس تحريرها الشاعر الفلسطيني توفيق صائب وأنا أذكر إنه يعني دار حوار بين توفيق صائب عندما جاء ليزورنا في روز اليوسف ويحاول إقناعنا بالكتابة في مجلة حوار ونحن يعني.. أنا اعتذرت له مع احترامي له عن أنه أنني أكتب في هذه المجلة وقلت له ما كان شائعا يعني أفضيت إليه بشكوكي حول دوافع المجلة وحول مصادر تمويلها وقد أثبتت الأيام صدق ظنوننا لأنه نشرت النيويورك تايمز أظن سنة ١٩٦٤ تحقيقا حول هذه المؤسسات الثقافية التي أنشأتها المخابرات الأميركية لاستقطاب الأقلام الثورية في العالم ومنها الأقلام الثورية في العالم العربي.

محمد كوزولوغل: المسيرة التي جعلت ناظم حكمت يشتهر على المستوى العالمي كشاعر فذ في أعوام الأربعينات وفي معرض تقييمنا لهذه المسيرة لابد من القول أن وصول أحد الشعراء أو الأدباء إلى مستوى الشهرة العالمية في تلك الفترة أي اعتبارا من الأربعينات كان له وسيلتان هامتان؛ أولهما أن يرتبط الأديب بمنظمة إمبريالية دولية مثل (CIA) تمتلك شبكة من دور النشر والإعلام وتقوم بترجمة المؤلفات إلى لغات مختلفة وتمول كل مشاريع الكاتب لكي توصلها إلى أكبر عدد ممكن من المجتمعات في العالم وباختصار أن يكون الكاتب عميلا للإمبريالية العالمية وجزء من الحرب الباردة آنذاك. والوسيلة الثانية هي مخاطبة الناس الفقراء في كل مجتمعات العالم وهم الناس الذين يعرفهم ناظم جيدا ويفهم ما يعانوه بشكل دقيق، أي أن يكون الكاتب صوت الفقراء والكادحين في العالم وأن يختار حياتهم ويعبّر عما يشعرون به وهذا يؤدي إلى شهرة شعبية عالمية مع ترجمة المؤلفات إلى لغالت مختلفة كي تصل إلى الجموع الشعبية في مختلف مناطق العالم وهنا يمكننا التأكيد بسهولة أن ناظم لم يختر أن يكون أديبا عميلا لد (CIA) بل اختار أن يكون أديبا وشاعر الفقراء في العالم وهذا ما أوصله إلى الشهرة وجعله جزءا من الثقافة العالمية.

أثر ناظم حكمت على الشعر العربي

إن كاتبَ هذا الكتاب شاعرٌ تركيٌ عادي يعتز بأنه أعطى قلبه وعقله وعمره كله لشعبه. من جهة اخرى فإن هذا الشاعر دأب بواسطة الشعر على تمجيد جميع نضالات كل الشعوب مهما كان اسمها وموقعها الجغرافي وقوميتها وعرقها، في سبيل الاستقلال القومي والعدالة الاجتماعية والسلم، وقد اعتبر انتصارات هذه الشعوب انتصارات لشعبه هو، وهزائمها هزائم له، كما اعتبر أفراحها وأتراحها أفراحاً وأتراحاً لشعبه بالذات .
هكذا كتب ناظم حكمت عن نفسه، بتواضع، حينما أجبره بعض الأصدقاء ذات يوم على كتابة مقدمة لبعض أعماله، وهو الذي لم يحب الحديث عن نفسه يوماً.

حلمي سالم

شاعر مصري

عام ٢٠٠٢ هو عام ناظم حكمت كما قررت اليونيسكو، لأنه العام الذي يوافق مرور مئة عام على ميلاد الشاعر التركي العظيم. لهذا فقد شارك المجلس الأعلى للثقافة في مصر في احتفال العالم بحكمت عبر ندوة وكتاب. أما الندوة فقد عقدت يوم ٨ أيار تحت عنوان الشاعر العالمي ناظم حكمت ، نظمتها لجنتا الترجمة والشعر في المجلس، وشاركت فيها نخبة من المثقفين والمترجمين والشعراء، منهم: جابر عصفور، عبدالقادر القط، فاطمة موسى، أحمد الخميسي، أنور ابراهيم، عبدالقادر حميدة، إدوار الخراط، مرسي سعد الدين، أحمد عبدالمعطي حجازي، محمد ابراهيم أبو سنة، وذلك على أربع جلسات نقدية وشعرية.
وأما الكتاب فهو إعادة طبع ديوانه أغنيات المنفي الذي ترجمة الشاعر محمد البخاري. وكتب تصديرا للطبعة الجديدة المترجم طلعت الشايب، وكانت الطبعة الأولى منه صدرت عام ١٩٧١ عن الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. والحق أن هذا الكتاب كان – حينذاك – واحداً من أهم المصادر الثقافية والشعرية لجيل كامل من الشعراء المصريين، الذين صاروا يُعرفون في ما بعد باسم جيل السبعينات إذا تغاضينا عن انزعاجنا – في ما بعد – من ترجمته موزونا على تفاعيل الخليل، إذ كانت قلوبنا تدمع ونحن نردد:

يا حبي الأوحدَ في هذا العالم
كيف كتبتِ اليَ:
رأسي يتمزق، قلبي ينفطر
سأموتُ إذا شنقوك
سأموتُ إذا كنتُ سأفقدك الى الأبد
زوجتي ستعيشين وتتبدّد ذكراي
كدخان أسود تذروه الريح
فأناس القرن العشرين
لا يشغلهم موتاهم أكثر من عام .

وكانت أرواحنا – نحن الطلبة الثائرين إبان الحركة الطلابية أوائل السبعينات – تشرق بالتفاؤل والأمل في المستقبل حينما كنا نردد معه، في التظاهرات والمؤتمرات ومجلات الحائط:

أجملُ أنهار العالم لم نرها بعد
أجملُ أطفال العالم لم تكبر بعد
أجملُ أيام العمر لم تشرق بعد
وأنا لم أهمس في أذنك
أجمل ما أتمنى أن أهمس لك به .

عرف الشعب التركي – كما يقول البخاري في تقديمه – اسم ناظم حكمت من خلال شعر بالغ البساطة والرقة والصدق في التعبير عن مآسيه، في أيام كانت الثورة فيها تحتدم في أعماق الشعب، وتنداح على الأرض التركية، موقظةً عصراً جديداً، عصر الجمهورية، التي أعلنت عام ١٩٢٣. وقدم كمال أتاتورك لفتة تقدير الى الشاعر الشاب الذي شارك في معركة الحرية بتفان مذهل، وبعث به الى الاتحاد السوفياتي في منحة علمية لدراسة علم الاجتماع.
وفي موسكو تفتح وجدان الشاعر على نبع جديد من منابع الإبداع الإنساني، والتصق باثنين من أهم الشعراء السوفيات وهما مایاكوفسكي ويسنين، وتشرّب تقالید الشعر الأوروبي مضيفا بذلك ثراءً جديداً الى حصيلته الخصبة من تراث الشعر التركي، الذي يمثل أحد روافد الشعر العربي الأصيل.
بدأ ناظم حكمت نشاطه السياسي – كما يقول طلعت الشايب في تصديره – عام ١٩١٨، مسؤولاً في تحرير المطرقة والمنجل جريدة الحزب الشيوعي التركي الذي انضم اليه في العشرينات، ودرس الاقتصاد والاجتماع في جامعة موسكو (١٩٢١ – ١٩٢٤)، وبعد أن عاد سراً الى بلاده عام ١٩٢٨، اعتقل، ولم يطلق سراحه إلا في عفو عام سنة ١٩٣٥، ثم حكم عليه بالسجن مرة اخرى عام ١٩٣٨ لمدة ٢٨ عاماً لقيامه بنشاط معاد للنازية وفرانكو، قضى منها ١٢ عاماً في سجون مختلفة قبل أن يطلق سراحه إثر موجة احتجاج عالمية وحملة واسعة للإفراج عنه نظمتها لجنة في باريس كان من بين أعضائها بيكاسو وبول روبسون وسارتر. كانت التهمة المباشرة الموجهة اليه هي تحريض جنود البحرية التركية على التمرد من قصائده التي وجدوها معه.
أثر ناظم حكمت – شخصاً وشعراً – في الشعر العربي الحديث تأثيراً بالغاً. إذ صعد الى الحياة الشعرية التركية والعالمية في لحظة مؤاتية: على المستوى العالمي كانت حركة المد الثوري الاشتراكي في أوجها، مع ازدهار الاتحاد السوفيتي، وتوهج الواقعية الاشتراكية، وحيث ذروة السريالية في الفن والأدب، ونجوم مبدعون يشكلون سماء زاهية في العالم كله: نيرودا، لوركا، إيلوار، أراغون، مایاكوفسكي، سارتر، غيفارا، غارودي، ألبير كامو، أندريه مالرو، خيمينيث، ماتشادو، أونامونو، بيكاسو، أندريه بريتون، وغيرهم. وعلى المستوى العربي كانت حركة التحرر الوطني العربية في عنفوانها، إذ تحرر أكثر من بلد من نير الاستعمار، وصعدت نغمة الاشتراكية العربية في أكثر من دولة، كما ظهرت حركة الشعر الحر حاملة لواء التجديد والالتزام والحرية والنزعة الإنسانية الكونية (أو قل الأممية)، وبروز شعار التضامن مع الشعوب المقهورة والمناضلين في كل مكان وشتى المعذبين في الأرض . (زار ناظم حكمت مصر عام ١٩٦٢ ضمن وفد من أعضاء مؤتمر كُتاب آسيا وافريقيا، والتقي كُتابَها وشعراءها، قبل وفاته بعامين).
في سياق حار عارم كهذا، كان طبيعياً أن يكون حضور هؤلاء الشعراء الإنسانيين العالميين في ثنايا الشعر العربي الحديث حضوراً ساطعاً، وفي قلب هؤلاء ناظم حكمت. فكتب صلاح عبدالصبور عن لوركا، وكتب أحمد عبدالمعطي حجازي عن نيرودا، وكتب حسن فتح الباب عن ناظم، وكتب سعدي يوسف عن ايلوار، وكتب أدونيس عن بيكاسو، وكتب فؤاد حداد عن أراغون، وكتب بلند الحيدري عن لوركا. أما عبدالوهاب البياتي فكتب عن معظم هؤلاء، شعراً ونثراً ومذكرات لأن معظم هؤلاء الشعراء العالميين كانوا اصدقاء شخصيين للبياتي.
ومن القصائد النادرة في رثاء ناظم حكمت، أذكر قصيدة صلاح جاهين، ذلك أن كثراً من شعراء العامية المصرية كتبوا العديد من القصائد في رثاء ناظم، مثل عبدالرحمن الأبنودي وفؤاد حداد وسيد حجاب وسمير عبد الباقي وفؤاد قاعود. قال جاهين في قصيدته بكائية الى ناظم حكمت : من سنة مش جيت ودورت هنا/ ع الولد اللي في قصيدتك بورسعيد؟/ قلبه كان تفاحة خضرا ومات شهيد/ مش لقيته من جديد؟/ ولقيت قلبه حديد؟/ ولقيت شعرك على لسانه نشيد؟/ ولقيت شعرك بيتجسد على مر الزمن؟/ ليه تموت يا عم ناظم/ قبل ما أزمير تغني لك كمان؟/ كنت عشت . في هذا الضوء يستطيع المتابع أن يرصد أثر ناظم حكمت على الشعر العربي الحديث متجلياً في ثلاثة ملامح:
الأول: هو الاتجاه نحو البساطة في الأداء الشعري، بعيداً من الاغتراب والتصنع، من دون فقدان جوهر المستوى الفني الرفيع. ووجد معظم شعراء حركة الشعر الحر العربية في بساطة شعر ناظم حكمت سنداً قوياً يؤكد دعواهم الى البساطة والعمق في آن، والى إنكار الاصطناع الشكلي الذي غرق فيه الشعراء التقليديون السابقون.
الثاني: هو عدم إهمال التراث السابق، رسمياً كان أو شعبياً، إذ أعطي انغماس ناظم في تراثه الرسمي والشعبي (مثله مثل نظيره الكبير لوركا) دفعة مؤثرة لشعراء حركة الشعر الحر العربية في الإقبال على تراثهم العربي، الرسمي والشعبي، على نحو ما نلحظ في شعر البياتي وأدونيس وأمل دنقل وحجازي وغيرهم، وعلى نحو ما تدلنا مذكرات بعض الشعراء العرب حينما كتبوا عن تجاربهم الشعرية.
الثالث: التوجه الى التعبير عن هموم البسطاء وأشواق الفقراء وآلام المقهورين في الوطن وفي شتي بقاع الأرض، وكان لهذا التوجه مساهمة كبيرة في ابتعاد حركة الشعر الحر العربية عن الهموم الذاتية الضيقة الى هموم الجموع المغلوبة.
هكذا جسّد ناظم حكمت – بالنسبة الى الشعراء العرب المجددين في أواسط القرن العشرين – نموذجاً للشاعر المناضل الذي يرتبط كفاحه بشعره، وشعره بكفاحه، ارتباطاً متيناً لا تنفصم عراه، حتى إنه صار – لا سيما أثناء سجنه وبعد رحيله – رمزاً من رموز الشعر العربي الحديث ومادة من مواده النابضة.
وأشهد أنني ما زلت أذكر كيف كانت فقرته التالية خيطاً أساسياً من خيوط قصائدنا في النصف الأول من السبعينات، نتناص معها أو نلمّح اليها إيحاءً أو تصريحاً، كلها أو بعضها، نستكملها أو ننقصها، نؤيدها أو نعارضها، تقول الفقرة:

أنا لا أملك ما أعطيه لشعبي المسكين سوى
تفاحة هي قلبي/ والذبحة لا تفتك بي
لتصلب شريان أو قسوة سجن/ فأنا أنظر
عبر القضبان الى الليل/ ورغم الجدران
القائمة على صدري/ يخفق قلبي مع أبعد
نجم .

×××

في عام ناظم حكمت سنرثيه بكلماته، هو
الذي قال في قصيدة مراسيم جنازتي :
نافذة مطبخنا
ستودعني بنظراتها
وشرفتنا سترفع الغسيل المنشور قليلاً
حتى أمر،
لقد عشتُ سعيداً في هذه الدار .
نعم يا ناظم: المنفى حرفة شاقة ، لكن الموت
حرفة أشق .

جريدة الاهرام اذار ٢٠٠٢

١٩٢٨، اعتقل، ولم يطلق سراحه إلا في عفو عام سنة ١٩٣٥، ثم حكم عليه بالسجن مرة اخرى عام ١٩٣٨ لمدة ٢٨ عاماً لقيامه بنشاط معاد للنازية وفرانكو، قضى منها ١٢ عاماً في سجون مختلفة قبل أن يطلق سراحه إثر موجة احتجاج عالمية وحملة واسعة للإفراج عنه نظمتها لجنة في باريس كان من بين أعضائها بيكاسو وبول روبسون وسارتر. كانت التهمة المباشرة الموجهة اليه هي تحريض جنود البحرية التركية على التمرد من قصائده التي وجدوها معه.

قررت منظمة الىونسكو ان يكون عام ٢٠٠٢ عام الشاعر التركي ناظم حكمت لانه يوافق مرور مائة عام على مولد هذا الشاعر وممن شارك في الاحتفال بهذه المناسبة : المجلس الاعلى للثقافة في مصر عبر ندوة ادبية اسهم فيها مشاهير كتاب مصر وفي مقدمتهم جابر عصفور وعبد القادر القط ،وفاطمة موسى واحمد عبد المعطي حجازي وغيرهم ،الندوة استغرقت اربع جلسات نقدية وشعرية .ومن مظاهر التكريم الاخرى ان المجلس الاعلى المشار اليه اعد طبع ديوان ناظم حكمت «اغنيات المنفى « الذي ترجمه الى العربية الشاعر محمد البخاري وطبعه في مصر للمرة الاولى عام ١٩٧١ ، وتاثر به شعراء السبعينيات في مصر تاثرا واضحا .

ناظم حكمت ١٩٠٢-١٩٦٢

احسان الملائكة

من هو ناظم حكمت

ابوه « حكمت بيك « كان مديرا للمطبوعات العامة وموظفا في قنصلية تركية وجده لابيه « محمد ناظم باشا « ابن شاكر افندي قائممقام مدينة « اقشهر» . عرف جد ناظم حكمت ، محمد ناظم باشا بثقافته الواسعة وميوله الادبية ، ولد في منطقة « اسكودار» باستانبول ، عين متصرفا لمدينة « مرسين « ثم لمدينة « قيصري « . ومن الوظائف الاخرى التي شغلها وظيفة الوالي لمدينة ديار بكر ومدينة حلب بسوريا ، ومدينة قونيا ومدينة سيفاس وكان منتسبا للطريقة المولوية الصوفية ، ومنح لقب الباشوية . من مؤلفاته :

١- كربلاء

٢- شرح القصائد العربية الشهيرة ٣-ديوان شعره في عدة اجزاء .

ولد ناظم حكمت كما اشرنا في اسرة ذات مكانة اجتماعية كبيرة وفي اجواء ثقافية مرموقة ومتالقة . مولده في استانبول ودراسته الاولى فيها . كانت والدته رسامة معروفة ، تبدت على الصبي مواهب شعرية واضحة ، واثناء دراسته الثانوية بدا ينشر اشعاره ومقالاته . في تلك المرحلة من حياته ابدى حماسا شديدا لنجاح ثورة التحرير التي قادها مصطفى كمال ، سنة ١٩٢٣ ، فارسله الزعيم التركي الى الاتحاد السوفياتي ليتخصص في علم الاجتماع ، ولعل الكثيرين لا يعرفون ان الاتحاد السوفياتي كان يقدم المساعدات السرية الى مصطفى كمال اثناء نضاله ضد المحتلين الانجليز والفرنسيين بعد سقوط الامبراطورية العثمانية .

في موسكو تهيا لناظم حكمت ان يطلع على اثار مشاهير الشعراء الانجليز والاميركان مثل ت . س . الىوت ، وعزرا باوند ، واودن الخ . كما اطلع على الشعراء الاوربيين العظام التقدميين من امثال اراغون ولوركا ونيرودا . هذا فضلا عن تأثره بالشعراء والادباء الروس امثال بوشكين وماكسيم غوركي ومايا كوفسكي واعجابه الكبير بالروائيين الروس العظام امثال دوستيفسكي وغوغول وتشيكوف الخ ، واستطاع فيما بعد ان يتفهم كفاح الجمهوريين الاسبان ضد الدكتاتورية ، ويطلع عن كثب على رسوم بيكاسو الثورية ويتعاطف مع تجديداته التي غيرت عالم الرسم الحديث تغيرا جذريا .

انهى ناظم حكمت دراسته في موسكو لكنه حين عاد الى تركيا قبض عليه والقي به في السجن لانه ينتمي الى الحزب الشيوعي في حين كان نظام مصطفى كمال ، راسماليا ومعاديا تماما للفكر الماركسي والنظام الشيوعي . وقد صدر الحكم عليه بالسجن مدة خمسة عشر عاما لكنه استطاع بعد سنوات الهرب من السجن ، والتنقل بين المنافي خارج وطنه ، واضطر الى ان يمارس مهنا عادية كي يضمن لقمة عيشه فاشتغل عامل مطبعة كما فعل الشاعر بول الوار شاعر المقاومة الفرنسية ، وغير ذلك من المهن . اثناء ذلك كان يواصل نشر اشعاره ومقالاته في تركيا تحت اسماء مستعارة فنشر عشر مجموعات شعرية وثلاث مسرحيات بهذه الطريقة وعاد ناظم حكمت اخيرا الى تركيا فقبض عليه فورا وذلك سنة ١٩٣٨ وصدر عليه الحكم بالسجن مدة ٢٨ عاما ، قضى منها في السجون ثلاثة عشر عاما ، فتنادى احرار العالم في كل مكان احتجاجا على سجنه ، حتى اطلق سراحه كما سياتي ، اثناء فترة سجنه لم ينقطع عن الانتاج وكان يعلن في قصائده تعاطفه الشديد مع ثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي ، ويكتب عن بور سعيد ضد العدوان الثلاثي على مصر الخ الخ .

اقتبس فيما يلي جزءا من قصيدة كتبها في سجنه الانفرادي :- (غير مسموح لي ان اتحدث الا مع نفسي ذلك ما أفعله ، الا اني اغني حين اسام الثرثرة يتغلغل صوتي حتى اعماقي فيتمزق قلبي

ويود فؤادي ان يبكي كالىتيم الحافي القدمين في الاسطورة

وهو يمشي فوق طبقات الجليد اللاسعة ببردها يبكي وحيدا منتفضا وسط الرياح لست اخجل من بكائي ولا من ضعفي

كم اتمنى ان اسمع صوتا انسانيا غير صوتي .)

في سنة ١٩٤٩ تشكلت في فرنسا لجنة تحت اسم « لجنة تحرير ناظم حكمت « وتوالت احتجاجات احرار العالم ضد الحكومة التركية ، حتى تم الافراج عنه ، لكنه بعد ذلك تعرض للمراقبة البوليسية ، ما دفعه للهرب الى بلدان اوربا الشرقية وعاد يتنقل من منفى الى منفى .

توفي ناظم حكمت سنة ١٩٦٢ فرثاه كل كبار شعراء العالم من ذلك ما كتبه الفيلسوف الفرنسي سارتر (ان اشعار ناظم حكمت ستعمل على حمايته من النسيان . لقد انتزع ناظم نفسه من القبر بكل كلمة كان يكتبها) . درس ناظم حكمت علم الاجتماع وعلم الاقتصاد في جامعة موسكو على حساب الحكومة التركية بين ١٩٢١- ١٩٢٤ . وبسبب نشاطه السياسي تعرض عند عودته الى تركيا الى المحاكمة وظل يتنقل من سجن الى اخر كما مر ذكره ، ولم يطلق سراحه الا بعد موجة الاحتجاج العالمية في الدفاع عنه ، وقد نظمت الحملة لجنة مؤلفة من اشهر ادباء وشعراء اوربا من ضمنهم اضافة الى الادباء كل من الفيلسوف سارتر والرسام بيكاسو والمغني التقدمي الشهير بول روبسون .

زار ناظم حكمت مصر قبيل وفاته ضمن اعضاء مؤتمر اسيا وافريقيا والتقى كبار الادباء والشعراء المصريين ، وممن رثى ناظم حكمت بعد وفاته من المصريين الاديب صلاح جاهين والشاعر الشعبي عبد الرحمن الابنودي ، واهم الشعراء العرب الذين تاثروا باسلوب ناظم حكمت ادونيس وامل دنقل واحمد عبد المعطي حجازي ، وعبد الوهاب البياتي الذي كان من اصدقاء ناظم حكمت .

في العدد ٢٢ من مجلة yaprak " الورقة « بتاريخ مارس اذار عام ١٩٥٠ ظهرت في الصفحة الاولى الكلمات التالية : « استثيرت مشاعر كل المتنورين في بلادنا بسبب اضراب الشاعر ناظم حكمت عن الطعام وهو يقبع داخل جدران السجن لمجرد خطأ قانوني . ان مثقفي استانبول وانقرة واعضاء جمعية المعلمين في استانبول ومعظم الجمعيات الاخرى يطالبون رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس مجلس النواب بالافراج عن ناظم حكمت « .

في ذيل هذا الكلام وقع عدد كبير من المتنورين الاتراك فيهم الشعراء والرسامون والموسيقيون واساتذة الجامعات والصحفيون ، ومن اشهر اولئك الشاعر الشهير نيزن توفيق ، والناقد نور الله تاج ، والكاتب المعروف فالح رفقي الخ الخ .

الشاعر والناقد الشهير مليح جودت انداي يعلق على ما سبق قائلا : « فورا رحنا ، صديقاي الشاعران اورهان ولي واوكتاي رفعت وانا (اصحاب المجموعة الشعرية الطائرة الصيت « الغريب «) اقول رحنا نجمع تواقيع اشهر الناس ، ثم بدا ثلاثتنا اضرابا عن الطعام ليومي السبت والاحد تضامنا مع ناظم حكمت الذي اضرب عن الطعام بدون تحديد ، أي الى مالانهاية « .

(اثار صيامنا عن الطعام اهتمام الصحف الىومية في انقرة ، فنشرت الخبر في اماكن بارزة من صفحاتها ، وهرع الىنا عدد من اصدقائنا الشعراء وراحوا يعاتبوننا لاننا لم نخبرهم مسبقا بنيتنا في الصيام والا لكانوا قد شاركونا في هذه العملية الاحتجاجية .) كان لهذه الاحداث كلها صدى في الصحف الىومية فتنادى احرارها مطالبين الحكومة التركية باطلاق سراح ناظم حكمت فورا . واضطرت الحكومة الى الاستجابة للرأي العام وخرج ناظم حكمت من السجن .

لكنه اضطر كما سبق ان ذكرنا ، الى الفرار من تركيا والاقامة في البلدان الاشتراكية متنقلا من منفى الى اخر حتى وفاته .

ويكمل الشاعر مليح جودت انداي تعلىقاته المشار اليها في كتابه الممتع akan zaman ، duran zaman أي الزمان الجاري والزمان الواقف ، فيشير الى امتنان ناظم حكمت من حملته الاحتجاجية هو واورهان ولي واوكتاي رفعت ويذكر كيف كان تعارفه لاول مرة في حياته بناظم حكمت الذي عانقه لدى اول لقاء بينهما ووجه اليه كلمات الشكر والامتنان .

هل انتهت ماساة اعظم واشهر شعراء تركيا عند هذا الحد ؟

الكاتبة التركية « زينب اورال « تكمل سيرة ناظم حكمت بعد وفاته في كتابها المؤثر (ابن وطني ناظم حكمت) فتقول في احد فصوله : « السيدة سامية شقيقة ناظم حكمت كانت قد قدمت طلبا الى الحكومة التركية لاعادة الجنسية التركية الى شقيقها الشاعر بعد وفاته من اجل امكان استعادة حقوقه المدنية والانسانية لكن المحاكم التركية رفضت الطلب ، وبذلك اصرت الحكومة التركية على ابقاء ناظم حكمت عدوا لها « .

(انا لا اعرف اية هيئة تلك التي جردت ناظم حكمت من جنسيته التركية اثناء حياته لكنك لو زرت أي بلد من بلدان العالم المتمدن فسوف تسمع هناك ان ناظم حكمت هو اعظم شعراء تركيا الحديثة) .

(انا لست محامية وليس لي علم بقوانين المحاكم لكني حين قرات قرار المحكمة برفض اعادة الجنسية لناظم حكمت لم اتمالك نفسي من الضحك الشديد . ترى ايه عقلية هذه التي تحرم شاعرا عبقرياً مثل ناظم حكمت من حق المواطنة في وطنه للاسباب التي وردت في قرار المحكمة « لعدم توفر المصلحة والفائدة « واوضح انهم لا يفكرون الا بعقلية التاجر الذي يبيع ويشتري . فكيف لا مثالهم ان يفهموا حقوق الانسان يا ترى ؟)

((ايها السادة الحكام . ان استعادة ناظم حكمت جنسيته التركية ليست مطلبا خاصا بعائلة الشاعر انه حق الشعب التركي كله بما فيه اسرة الشاعر ان المصلحة في هذا المجال لا تتصل بالمال والنقود وانما تخص المنفعة المعنوية والروحية ، بل انها مسالة تخص شرف تركيا ووجدانها .))

المصادر العربية

١ـــ مجلة البيان الكويتية العدد ٧٧ – آب ١٩٧٢ الموضوع [ناظم حكمت] نبوءة من هذا العصر بقلم خيري منصور

٢- شبكة الانترنيت . موقع مجلة المتمدن

٣- تراجع سيرة كمال طاهر حول ناظم حكمت

٤-المزاوجة بين الفكر والسلوك بقلم علوان سلمان من جريدة الصباح البغدادية ٢٤ ايلول ٢٠٠٥ .

(((مختارات من شعر ناظم حكمت)))

من قصيدة [رسالة الى ولدي محمد]

من ديوان [اغنيات المنفى]

ترجمة محمد البخاري

لا تحيَ على الارض كمستأجر بيت
ولتعش على الارض كما لو كان العالم بيت ابيك
او كزائر ريف وسط الخضرة
ثق بالحب والارض والبحر
امنح ثقتك قبل كل الاشياء للانسان
امنح ثقتك للسحب وللكتب
واستشعر اكتئاب الغصن الجاف والكوكب الخامد والحيوان المقعد
واستشعر اولا اكتئاب الانسان
لتحمل لك الفرح كل طيبات الارض
ولتحمل لك الفرح الفصول الأربعة.

سبق للراحلة احسان الملائكة ان نشرت هذه المادة بمناسبة مئوية ناظم حكمت

الكاتبة التركية « زينب اورال « تكمل سيرة ناظم حكمت بعد وفاته في كتابها المؤثر (ابن وطني ناظم حكمت) فتقول في احد فصوله : « السيدة سامية شقيقة ناظم حكمت كانت قد قدمت طلبا الى الحكومة التركية لاعادة الجنسية التركية الى شقيقها الشاعر بعد وفاته من اجل امكان استعادة حقوقه المدنية والانسانية لكن المحاكم التركية رفضت الطلب ، وبذلك اصرت الحكومة التركية على ابقاء ناظم حكمت عدوا لها « . (انا لا اعرف اية هيئة تلك التي جردت ناظم حكمت من جنسيته التركية اثناء حياته لكنك لو زرت أي بلد من بلدان العالم المتمدن فسوف تسمع هناك ان ناظم حكمت هو اعظم شعراء تركيا الحديثة) .

ناظم حكمت

شاعر الحب في منعطف الحرب والسلام

ناظم حكمت نبض حياة وسحر جذاب ومحبة وحميمية وجمال أخاذ تسري في عروقي منذ ان تعرفت على قدر من تاريخ حياة ونضال وكفاح هذا الشاعر الكبير هذا القلب والانسان الخالد الذي لايموت وهوينبض بالمحبة والمودة للانسانية جميعا وبون استثناء والذي نذر نفسه وشعره وكل تفاصيل حياته من اجل قضية عادلة وهدف سام الا وهو تحقيق حرية وانعتاق وسلام العالم عبر تحقيق الاشتراكية حلم الشعوب. ولابد للعالم العربي عموما بكل فئاته وشرائحه وبالأخص مثقفيه كما أرى ان يكون ممتنا للروائي والمناضل الكبير حنا مينة لم بذله من جهد ودراسات مفصلة تغطي الكثير من شخصية ونضال ونتاج ناظم حكمت. حتى اني أصبحت نتيجة لذلك لااستطيع ان أراهما أقوالا وصورا ومنتجا أدبيا منفردين بل علمين من اعلام الفكر والنضال والشعر والأدب تجمعهما وحدة المنهج الفكري وحب الانسان.

حميد لفته

وفاء مني لروحي وبهجتي ومتعتي بسمو وانسانية وثراء ناظم حكمت في ذكرى رحيله الرابعة والأربعين الا ان أضع مع كل الأحرار في العالم أكاليل الزهور على ضريح ناظم حكمت واذكر المطلع وأتحف من يطلع على بعض النماذج والمختارات من رياض ماقاله وأشعاره وعظيم أفعاله..... وبعض مما قيل بحقه وهو كثير شاعرا ومناضلا وانسانا وبمناسبة ذكرى الرحيل استذكر قول الشاعر الكبير الراحل رسول حمزاتوف في حتمية الموت وخلود مايتركه من اثر بعده حيث يقول:

(كلنا سنموت لن نعيش الى الأبد
وذلك معروف وهو ليس بجديد لكننا نحيى ليبقى بعدنا اثر بيت أو شجرة أو كلمة اوممر)

ومما قاله ناظم بخصوص الموت

(أمنا الطبيعة ستعلن ساعة الانصراف ذات يوم
قائلة: لقد انتهي الضحك والبكاء ياولدي
وستعاود الحياة التي لاترى ولاتتكلم ولاتفكر دورتها اللامحدودة)

وتنفيذا لمقولة أمنا الطبيعة ودع ناظم حكمت الحياة وتوقف قلبه عن الخفقان في ٣\٦\١٩٦٣ توقف قلب الشاعر الذي قال عنه حنا مينة(يكفي ان نقول ناظم حتى نقول الانسان) وفي سبب موته يقول حنامينة(الذي يقرؤون رسائل ناظم حكمت وهو في السجن أو قصائده المكتوبة في تلك الحقبة رسائله المكتوبة الى كل واحد منا وكذلك قصائده المكتوبة من اجل كل واحد منا لن يتساءلوا مم مات ناظم بعد ذلك في الثالث من حزيران ١٩٦٣ انه لم يمت الا من الحب حب الانسانية العظيم)

فما الذي سيفعله شهيد الحب الانساني لو بقي على قيد الحياة حيث يجيب عن هذا التساؤل قائلا

(اذا بقيت سالما سأكتب على الجدران وفوق الأرصفة في الساحات العامة اشعاري وسأعزف على الكمان في ليالى العيد لمن يبقون من المعركة الأخيرة وكذلك سأعزف على الأرصفة المغمورة بضياء ليلة رائعة للذين يغنون أغاني جديدة للناس الجدد والخطوات الجدد)

وشرط ناظم على الموت لكي يكون عادلا يجب ان تكون الحياة عادلة يعني ان يحيى الانسان حياة مليئة بالسعادة والحرية والرفاه والمحبة حيث يقول (حتى يكون الموت عادلا لابد للحياة ان تكون عادلة)

فلأجل عدالة الحياة لأجل غد الانسانية المشرق يعزف ناظم ألحانه ويكتب أشعاره بعد ان تخلع الانسانية رداء الحروب والاستغلال والعبودية حيث الخلاص وتجاوز وحشية الرأسمالية بالغد الاشتراكي السعيد حتى يرى الانسان مالم يراه ويقول مالم يقله بعد حيث يقول:

(أجمل البحار: ذلك الذي لم يزره احد بعد
أجمل الأطفال: ذلك الذي لم يكبر بعد
أجمل أيامنا: تلك التي لم نعشها بعد
أجمل الكلمات: التي وددت قولها لك هي تلك التي لم اقلها بعد)

وناظم يعرف تماما هدفه وكذلك يعرف عدوه وعدو الفقراء والمعدمين الذين تبني قضيتهم حيث يدعو لوحدة وتماسك وتكافل قوي البناء والكفاح من اجل الحرية والعدالة والسلام حيث يقول

(البرجوازية قتلت اثنين منا
أماتت اثنين لن يموتا منا
البرجوازية دعتنا للمعركة
وقد قبلنا الدعوة
فنحن كما نعرف ان نضحك بفم واحد
نعرف ان نحيا ونموت كواحد
كلنا من اجل واحدنا
واحدنا من اجل كلنا)

وهو يصف أعداء الحياة لحبيبته ولزوجته ويدعوها للتفاؤل والكبرياء والعنفوان الانساني والأمل والثقة بالنصر حيث يقول:

(أنهم أعداء الأمل ياحبيبتي
نعم أعداء
المياه الجارية
والأشجار المثمرة الى انعة
والحياة المتدفقة المتطورة ذلك لان الموت طبع بصماته
على جباههم: هم مثل الأسنان المنخورة هم مثل اللحم المتهرئ
انهم محكومون بالانهيار الى غير رجعة
عندئذ ياحبيبتي سوف ترين بكل تأكيد
ملائكة الحرية تحوم في أجواء
بلادنا
مرتدية أحلى ازياءهامتلفعة ثياب العمال)

ان ناظم حكمت لايرى الحرية الاوهي مرتدية ثياب الطبقة العاملة انطلاقا من منهجه الماركسي باعتبار ان تحرر الطبقة العاملة وحريتها ستحرر الانسانية جميعا من التعسف والقهر والديكتاتورية والاستغلال .

ان شاعرنا الكبير يدعو كافة نساء العالم وخصوصا نساء المناضلين والمكافحين من اجل غد الحرية والسلام ان يكنّ رايات للثورة فخورات فرحات غير حزينات ولا منكسرات متفائلات وجميلات بجمال بيرق الثورة والمبادئ السامية التي من اجلها عذب وسجن وتشرد أزواجهن وأحبائهن حيث يقول مخاطبا زوجته بأرق وأسمي وأكثر العبارات وثوقا بالنصر وتحدي قوي الظلم والظلام :-

(اخرجي من الصندوق ذلك الفستان
الذي كنت ترتدينه حيث التقينا أول مرة
ارتديه ومري كوني مثل أشجار الربيع
أشكلي القرنفلة التي أرسلتها في الرسالة من السجن
في شعرك
ارفعي جبهتك العريضة
تلك الجبهة البيضاء المختلطة بالتجاعيد الجاذبة للقبل
في مثل هذا اليوم
لايجوز لزوجة ناظم حكمت ان تكون حزينة مهيضة
الجناح
لذلك مستحيل
في مثل هذا اليوم
ينبغي لزوجة ناظم حكمت ان تكون رائعة الجمال
كواحدة من بيارق الثورة)

وهو يخاطب الانسان في كل مكان وكل زمان مبشرا وواعدا ومؤكدا بزوال الظلم والاستبداد كما سينقضي فصل الخريف وامكانية ان يخلق الانسان الواعي ربيع الحرية والرفاه والسلام الدائم للبشر:-

(الخريف سينقضي مرة بعد مرة
والربيع سيعود مرة بعد مرة
ونحن سنقضي شتاءا أخر
متدفئين بنار غضبنا الاكبر
ورجائنا الأقدس)

وبذلك فشاعرنا الكبير يدعو المكافحين والمناضلين من اجل الحرية ان تحصنوا بوعيهم وعدالة قضيتهم وسمو مبادئهم ضد كل أساليب القهر والحرمان الموصوف بقساوة وشح الشتاء فليتحصن بدفء مبادئه وعدالة قضيته مما يتدفأ الانسان بالنار ليتقي أذي البرد ألشتائي القارس حيث تخلد الحياة للسكون.

وناظم حكمت لا يغفل دور وسائل الاتصالات والتقنية الحديثة في عصره في تضليل وتكبيل المعذبين والمظلومين من عمال وفلاحين وعموم الكادحين وحرف وعيهم وجرهم لمعارك جانبية لادامة وتأبيد استغلالهم .

وفي هذا يقول ناظم:-

(عصافير الدوري على أسلاك الهاتف
يالها من مخلوقات مسكينة لا تعرف شيئا عن الهاتف
ليتني أرى أجسادكم ملفوفة كالاكفان
فقد جعلتم أبناء قومي
مكفوفين وعيونهم مفتوحة)

وهو يخاطب أولئك المتلاعبون بالعقول محتكري وسائل الثقافة والاعلام.

ولشاعرنا الكبير الكثير الكثير في معني المحبة والوفاء والقيم النبيلة وهو بحق شهيد الحب الانساني النبيل كما وصف أسباب موته الأديب حنا مينة ومنها الصداقة الصادقة النزيه بين أبناء البشر ودعوته لرعيتها من قبل الأصدقاء كما يرعي الفلاح الشجرة فكلما كانت أرضها خصبة خالية من الأعشاب الطفيلية الضارةوماءوها وفير سمادها التواصل ألحميمي متمتعة بشمس الحرية والنماء كلما كان عمرها طويلا وثمرها وفيرا وخضرتها دائمة فان ماتت الشجرة لن تحيي مرة ثانية حيث يقول.

(الصداقة كالشجرة اذا يبست لن تخضر ثانية)

ومما استوقفني كثيرا ماورد من معاني في قصيدة للشاعر بخصوص النفط وعمال النفط في (باكو) السوفيتية خصوصا وعراقنا الحبيب يطفو على بحيرة من النفط يشم رائحتها المغرية ويسيل لها لعاب كل ذئاب الأرض لغرض نهبها وسلبها وقد قدم أبناء وبناة العراق عموما وعمال النفط خصوصا وكل القوي الوطنية العراقية قرابين الفداء والشهداء من اجل تخليصها من براثن الشركات الاحتكارية الطامعة بالتخادم والتكافل مع عملائها في الداخل وقد تكلل هذا النضال المرير بالنصر بسن قانون رقم(٨٠) في ١٩٥٩ وقرار التأميم في بداية السبعينات.

نتيجة الأوضاع السائدة في عراقنا اليوم وهيمنة الراسمال العالمي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية عادت آمال الشركات الاحتكارية المحرك الحقيقي للقرار السياسي الرأسمالى بل كشفت عن وجهها الحقيقي لمعاودة سلب ثروات العراق الهيدروكاربونية عبر الدفع لتمرير مشروع مسودة قانون النفط والغاز المزمع عرضها وتامين المصادقة عليها لتكتسب الشرعية القانونية المحلية والدولية خلال الأسابيع القادمة .

ان لما يدعو للفخر والاعتزاز ما تحلى به اغلب الاختصاصيين والباحثين والاقتصاديين والمثقفين العراقيين من وعي عال واصرار لكشف مخاطر هذا القانون واجحافه بحق الشعب العراقي وثروته الوطنية وفق صيغته الحالية. كما ان ما يدعو للفخر الموقف الصلب لعمال النفط العراقيين لرفضهم القانون بصيغته الحالية وخصوصا صيغة (عقود المشاركة) وتأييد الكثير من الفئات والشرائح للشعب العراقي لموقف العمال نأمل ان يكون هذا الأمر عامل توحيد للشعب العراقي ليكون صفا واحدا بوجه الاحتكارات العالمية بعيدا عن الشرذمة الطائفية والعرقية والمراد منها تفتيت الاجماع الوطني العراقي لنهب ثرواته واللعب بمقدراته.

فهاهو ناظم حكمت يقول ويعانق عمال النفط في باكو السوفيتية كرمز لكل العمال في العالم حينذاك حيث يقول

(وددت معانقة العمال المبدعين بمعاطفهم المز فتة
وعيونهم السود
وان اجثوا على ركبتي
فوق ثري باكو المقدس
واحتضن النفط براحتى
واشربه
كخمر اسود)

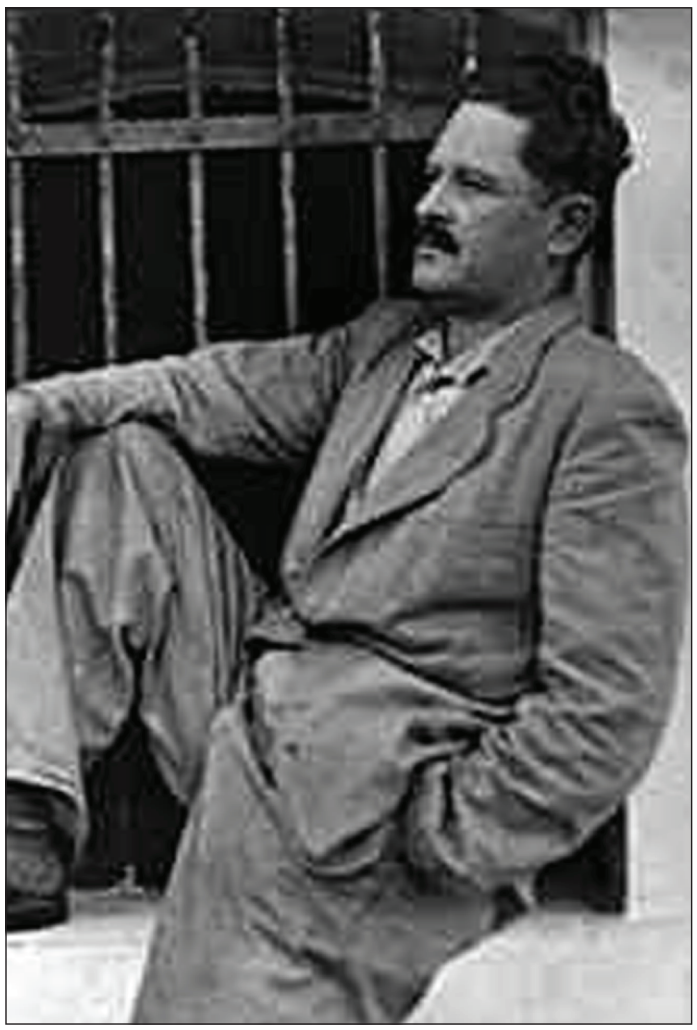

ان لما يدعو للفخر والاعتزاز ما تحلى به اغلب الاختصاصيين والباحثين والاقتصاديين والمثقفين العراقيين من وعي عال واصرار لكشف مخاطر هذا القانون واجحافه بحق الشعب العراقي وثروته الوطنية وفق صيغته الحالية. كما ان ما يدعو للفخر الموقف الصلب لعمال النفط العراقيين لرفضهم القانون بصيغته الحالية وخصوصا صيغة (عقود المشاركة) وتأييد الكثير من الفئات والشرائح للشعب العراقي لموقف العمال

كثيرا ما أجد صعوبة في تناول حياة أو ممات بعض الشخصيات العالمية الفذة من أمثال أسطورة الشعر والنضال ناظم حكمت الذي حمل في نتاج عمله وثقافته روح الشعب التركي وطبقاته الكادحة مكيفا إياها إلى فنون الشعر ناقلا هذه الروح من بيئة المجتمع التركي إلى البيئة العالمية متجاوزا صخورا صلبة واجهته في حياته وفي السجون التي وضع داخل زنازينها وفي المنفى الذي وجده مكانا قاحلا يكتنفه الضباب . لم يجد في حياته شيئا دافئا غير الالتزام بقضية شعبه وليس هناك من خصوبة حقيقية إلا داخل الفكر الإنساني المتغير والمتطور خاصة وهو يتبحر في الحالة التي أصابت العقل الأوربي من حيرة واحباط ووجوم بعد حربين عالميتين وبعد اختراع السلاح الذري واستعماله في هيروشيما .

قريبا يعود ناظم حكمت من منفاه إلى حدائق الأناضول

ناظم حكمت وجد في الشعر وطنه ووجد في الوطن قصيدة شعرية ووجد في كليهما حياة عظيمة الأفاق ينبغي على المثقف أن يكون فاعلا منتجا فيها . استقر رأيي على كتابة هذه المقالة حين وجدت خبرا سارا يقول أن الحكومة التركية بصدد إعادة الجنسية التركية إلى الشاعر والكاتب المسرحي الشهير ناظم حكمت.
من المعروف أن ناظم حكمت قد جرد من جنسيته التركية في خمسينيات القرن الماضي لاعتناقه المبادئ الماركسية، وبعد هربه من البلاد عقب قضائه سنوات في السجون التركية المظلمة .
السؤال الأول المطروح أمام الأجيال الشعرية والمسرحية المعاصرة والقادمة : من هو ناظم حكمت ..؟ ربما يسأل الكثير من أبناء الأجيال الجديدة المنتمية للنشاط السياسي أو الثقافي أو لكليهما .
تقول التعريفات الموسوعية والأرشيفية انه شاعر تركي ولد لعائلة ثرية ومتنفذة، عارض الإقطاعية التركية وشارك في حركة أتاتورك التجديدية ولكن بعدها عارض النظام الذي أنشأه أتاتورك وسجن في السجون التركية حتى ١٩٥٠ ،فر إلى الإتحاد السوفييتي وهو شاعر شيوعي، كانت أشعاره ممنوعة في تركيا إلى أن أعيد الاعتبار له من طرف بلده ، توفي في عام ١٩٦٣. تميز شعره ببساطة ساحرة ومواقف واضحة. جرب ناظم في شعره كل الأشكال الممكنة الحديث منها والموروث وغذى تجربته بكل الثقافات من حوله خاصة أنه له علاقات شخصية مع أبرز الشخصيات الأدبية الروسية والأوربية والأمريكية وحتى العربية.
ولناظم حكمت بصمته في الشعر العربي إذ نجد أصداء من طريقته الشعرية في أثر العديد من الشعراء مثل عبد الوهاب البياتي الذي ارتبط معه بعلاقة صداقة خاصة حدثني عن بعض صفحاتها ذات يوم في عمان – الاردن عام ١٩٩٦ مضمرا خلالها حبا عميقا لشخصية ناظم حكمت وصفاته الشاعرية والإنسانية .
كذلك تأثر بهذا الشاعر التركي بلند الحيدري وعبد الوهاب البياتي وحسب الشيخ جعفر الذي كرس اغلب قصائده للإنسان البسيط في القرية ، ونزار قباني الذي تأثر بشجاعة كلمات ناظم حكم ، وبعض قصائد بدر شاكر السياب نجد فيها آمال وحنين ناظم حكمت كما نجد تأثيرات فلسفية وأسلوبية على قصائد مظفر النواب ، الشعبية منها والفصيحة ، وكذلك العديد من الشعراء العراقيين والعرب الآخرين . من الضروري أن أقول رأيي هنا عن وجود مواصفات مشتركة عديدة بين الشاعر العراقي مظفر النواب والشاعر التركي ناظم حكمت أوجزها بهذه المناسبة كما يلي :
(١) البطل الملحمي في قصائد الشاعرين هو الشعب من الناس الفقراء وقد كانت عينا الشاعرين تخترقان السطح الاجتماعي الظاهر لبلوغ العمق الباطن .
(٢) لكل من الشاعرين عين سوسيولوجية متشابهة تبحث من خلال الشعر عن ما يجري داخل المجتمع من صراعات وتغيرات .
(٣) كل من الشاعرين نشأ في عائلة ذات أماني وتطلعات وبنية بورجوازية لكن سرعان ما انتمى إلى تطلعات وأماني وبنية الطبقات الكادحة .
(٤) انتقل كل من الشاعرين في مرحلة شبابهما من الوعي القومي إلى الوعي الإنساني الاممي .
(٥) ناظم حكمت وجد في الماركسية أداته في تحليل المجتمع مثلما مظفر النواب .
(٦) لم ينجو لا ناظم حكمت ولا مظفر النواب من ظلمة السجون . في السجن، واصل ناظم حكمت ومظفر النواب كتابة الشعر. ورغم العذابات التي كان يعانيان منها يوميا، فإنهما توصلا إلى انجاز أعمال عظيمة .
(٧) توفرت لكليهما أمجاد الشعر بل التغيرات الشعورية من خلال خبرات عاشها الرجلان في المنفى .
غير أن أفضل تعريف لناظم حكمت ، إنسانا وشاعرا ، هو ذلك الذي صاغه هو بنفسه، إذ قال في قصيدة قصيرة ملخصا وجوده بكلمات بسيطة متواضعة :

أنا إنسان
أنا ناظم حكمت شاعر تركي
أنا الحمية والحماسة من الساق حتى الرأس
ومن الساق حتى الرأس، كفاح ولا شيء غير الأمل،
ذاك أنا.

لم تكن هذه الكلمات ذات حس مجرد بل هي المكون الرئيسي في كل مرحلة من مراحل حياته مقرونا بأفعال حياته كلها بالدفاع عن قضايا المضطهدين . كان ناظم حكمت قد حقق هدف حياته الأفضل في جعل مواقفه كلها معبرة عن حبه لوطنه مفترضا أن يكون الشاعر قبل السياسي في صدارة الكفاح الوطني فهو القائل : لو وضعوا الشاعر في الجنة.. لصاح آه يا وطني . كما كان في شعره مثل مايكوفسكي محرضا الشعب على النضال والتقدم حسب قصيدته "لعلها آخر رسالة إلى ولدي محمد" من ديوان "أغنيات المنفى" :

لا تحيا على الأرض
كمستأجر بيت
أو زائر ريف وسط الخضرة
ولتحيا على الأرض
كما لو كان العالم بيت أبيك
ثق في الحب وفي الأرض وفي البحر
ولتمنح ثقتك قبل الأشياء الأخرى للإنسان
امنح حبك للسحب وللآلة والكتب
ولتمنح حبك قبل الأشياء الأخرى للإنسان
ولتستشعر اكتئابة الغصن الجاف
والكوخ الخامد
والحيوان المقعد
ولتستشعر أولاً اكتئاب الإنسان
لتحمل لك الفرحة
كل طيبات الأرض
ليحمل لك الفرحة
الظل والضوء
لتحمل لك الفرحة
الفصول الأربعة

ولكن فليحمل لك الإنسان أول فرحة

لقد احدث ناظم حكمت، الذي توفي في موسكو عام ١٩٦٣، ثورة في الشعر التركي، وقد ترجمت أشعاره إلى أكثر من خمسين لغة.
قال نائب رئيس الحكومة التركية جميل شيشيك إن الوقت حان لكي تغير الحكومة رأيها في الموضوع برمته لأن الجرائم التي حدت بالحكومة التركية إلى تجريد ناظم حكمت من جنسيته التركية لم تعد قائمة، بل أنها لا تعتبر جرائم الآن بالمرة وإن أسرة ناظم حكمت هي صاحبة القرار الأخير في موضوع تنفيذ وصيته بإرجاع رفاته إلى تركيا وإعادة دفنه "في ظل شجرة في مقبرة بالأناضول ."
يذكر ان ناظم حكمت حصل على الجنسية البولندية بعد تجريده من جنسيته التركية.
وفرضت السلطات التركية حظرا على تداول أعماله في البلاد استمر ساري المفعول حتى عام ١٩٦٥.
استمرت ملاحقة الذين يروجون لأشعاره في تركيا. ففي عام ٢٠٠٥، اعتقلت السلطات شابا تركيا تلا إحدى قصائد ناظم حكمت في مدرسته بتهمة ممارسة نشاط يقوض أركان الدولة.
ولكن بالرغم من ذلك، قاد العديد من المعجبين بناظم حكمت، وبضمنهم الكاتب اورهان باموك الحائز على جائزة نوبل للأدب، حملة تدعو لإعادة الاعتبار له.
وقال دوجو ايرجيل من جامعة انقره إن قرار الحكومة بإعادة الاعتبار لناظم حكمت يعتبر قرارا رمزيا يشير إلى ان البلاد باتت على استعداد لتقبل قدر محدود من النقد.
وكان حكمت قد جرد من جنسيته في عام تسعة وخمسين، ولجأ منفيا إلى موسكو حيث توفي هناك بعد أربع سنوات بعد ان خاطب منها جميع كتاب اسيا وافريق٥يا عام ١٩٦٢ في قصيدة فذة :

إلى كتّاب آسيا وإفريقيا
إخوتي..
لا يغرنكم شعري الأشقر.. فأنا آسيوي
ولا تلتفتوا إلى زرقة عيناي.. فأنا إفريقي
في بلدي لا تلقي الأشجار بظلالها على جذورها
كما في بلادكم أيضا
الخبز بين أنياب الأسد في موطني
والتنين يرقد بجانب ينابيع الماء
كما في بلادكم أيضا
ونحن نموت قبل أن نصل لسن الخمسين
كما في بلادكم أيضا
فلا يغرنكم شعري الأشقر.. فأنا آسيوي
ولا تلتفتوا إلى زرقة عيناي.. فأنا إفريقي
قومي لا يعرف ثمانون منهم لا القراءة ولا الكتابة
وأشعارنا تنتقل من فم إلى فم كي تغدو غنوة
فالشعر يتحول إلى أعلام في بلادي
وكذلك في بلادكم
إخوتي..
لنسير بجوار ثور الحرث النحيل كي نحرث
تربتنا بأشعارنا
وليغمر وحل مزارع الأرز حتى ركبنا
ولنسأل جميع الأسئلة
ولنجمع كل الأشعة
ولنقف في مدخل كل طريق
ولنصف من أشعارنا طريقا لكيلومترات طويلة
ولنكون أول من يتبين عدونا المقترب
ثم لنضرب بطبولنا
كي لا يبقى بلد أسير أو إنسان
ولا غيوم ذرية
ولنهب كل ما نملك من مال ومُلك وفكر وروح
ولتغدو أشعارنا طريق حريتنا الكبيرة

يعد ناظم حكمت، صاحب الاتجاه الماركسي، من أقوى رموز الأدب التركي في القرن العشرين، ويعزى إليه إحداث ثورة في الشعر التركي بسبب تخليه عن القواعد العثمانية التقليدية وتبنيه لقواعد الشعر الحر واللغة اليومية .
للمرأة وجود كبير وكثير في شعره وكانت زوجته (منوّر) رمزا لها ورمزا للحرية ورمزا للوطن ورمزا للصبر والانتظار فحين غيب في دهاليز السجون كان لا ينساها ابدا فهي بنظره تعبر عن وجوده في الضفة الأخرى خارج السجن نصف أشعاره كانت لها.. كان حبه لها حباً مكسواً بالجلال.. حب يتضمن أسمى المعاني.. وكان دائماً يتخيلها قادمة لزيارته:

"أهلاً بزوجتي أهلاً
تعبة أنت
فكيف أفعل؟
لو أردت غسل قدميك
فلا ماء عندي ولا طست
من ذهب
وأنت عطشى
ولا ماء مثلج أكرمك به
وأنت جائعة
ولا مائدة بغطاء كتاني
أمدّها لك
غرفتي مثل وطني
أسير وفقيرة
منذ وطئت قدماك غرفتي
أورق (البيطون) وصار أخضر
بعد أربعين عاماً أورق (البيطون) وصار أخضر."

كان القضاء التركي قد رفض قضية رفعتها شقيقته في عام اثنين وتسعين لاستعادة جنسيته، كما فشلت الجهود الهادفة لإعادة رفاته إلى تركيا . غير أن ضغط القوى اليسارية التركية ومظاهراتها المتكررة في الأشهر الأخيرة أجبرت الحكومة التركية على اتخاذ الموقف الجديد لإعادة ناظم حكمت في الغد القريب من منفاه إلى حدائق الأناضول وتربتها ولا شك ان هذه العودة ستحظى باحتفالية جماهيرية كبرى في أنحاء مختلفة من البلاد التركية والعالم كله لتتحقق نبوءة صديقه الرسام التركي عابدين دينو الذي أصاب تماماً حين قال: حياة ناظم حكمت في نظر كل الذين عرفوه، لا تستطيع إلا أن تكون في صيغة الحاضر المستمر.
في لقاء عودة ناظم حكت سيطلق جميع أبناء الشعب أغنيته :

آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبة
وأنا لست مسافر
أنا العاشق و الأرض حبيبة

ختاما أسألكم أيها العراقيون متى يعود محمد مهدي الجواهري وبلند الحيدري وعبد الوهاب البياتي ومصطفى جمال الدين وسركون بولص وعشرات الشعراء العراقيين إلى حدائق بلاد الرافدين ..؟

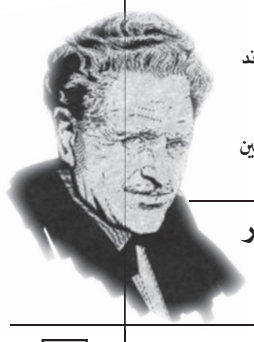

عن موقع الحوار المتمدن

الأشكال والمضامين في مسرح ناظم حكمت

د . شاكر الحاج مخلف

كتب ناظم حكمت في تلك الفترة أهم أثاره الأدبية وأروعها وكانت تعبر عن نضوج في المضمون وتطور في استخدام الأشكال الفنية ففي عام ١٩٤٠ نظم ملحمة " حرب الاستقلال التركية " والتي نشرت بعد وفاته عام ١٩٦٥ وهي تتحدث عن بطولة وتضحيات أبطال مغمورين من الجماهير والذين استطاعوا أن يحققوا نصرا كبيرا للأتراك على قوات اليونان وحلفائهم وتم إجلاؤهم وسوقهم إلى البحر، وتشكل تلك الملحمة الطويلة مع ملحمة " الشيخ بدر الدين " أهم روائعه الشعرية، كما نظم في تلك الفترة قصائده المطولة المعروفة باسم " مشاهد البشر في بلادي " وفيها يعرض أنماطا بشرية بعضمتها وضعفها وأخطائها وقد استمد مادة تلك القصائد المطولة من رسائل زوجته ومن شخصيات رفاقه في السجن وحكاياتهم عن ماضي حياتهم وأحلامهم وكذلك أخبار وقصص عن ذكريات حرب الاستقلال وعن إسهامهم فيها فكان يذهب إلى مكان الشخص الذي يريد أن يستمد منه معلوماته ويثير شجونه ثم ينتحي جانبا دون أن يلفت أليه النظر ويدون ملاحظاته ، وهناك أجزاء كثيرة من أحاديث تلك الشخصيات ضمنها قصائده دون أن يتناولها بشيء من التغيير،كان يؤمن بأن الشعب هو المرجع المهم في تطوير اللغة وإبداع الشعر وبقية الفنون والآداب فهو يقول " : أن فنان الشعب وقبل كل اعتبار أن يفهمه الشعب وأن يكون فنانا للشعب بمعنى الكلمة ويحمل اللقب باستحقاق أكيد " ومن هذا المنطلق عرض قصائده " مشاهد البشر في بلادي عدة مرات على فئات مختلفة من نزلاء السجن وبدل الكثير من مواضعها التي لم يكن فهمها يسيرا عليهم وأعاد كتابتها بطريقة أوضح ، وفي العام ١٩٤٨ كتب أهم أعماله المسرحية وهي "حكاية حب أو شيرين وفرهاد " والتي نشرت في تركيا عام ١٩٥٤ كما كتب رسائل السجن من عام ١٩٤٢- ١٩٥٢ وكذلك سيمفونية موسكو والتي نشرت عام ١٩٥٩ والقرن العشرون التي نشرت في عام ١٩٤٥ ، يرى ناظم حكمت إن الشاعر الحديث يجب أن يناضل من أجل أن يقول الحقيقة بدون زيف أو تلفيق " إن الشاعر لم يهبط فجأة من سماء التحليق بالغيوم ، بل إنما هو مواطن يخوض غمار الحياة ويواجهها بثبات وشجاعة ، هناك أقلام تستقر كالأوسمة الوطنية الكفاحية على الصدور وأقلام صفراء تافهة تستقر آخر المطاف بين أكداس القمامة.

مازلنا عبيداً، ويوجد لنا سادة
مازالت الجدران ذوات الحجارة
الملعونة المغطاة بالفطر
تفصل أبناء الأرض إلى جماعتين
العبيد...، والسادة.
مازال السيد يصدر الأوامر،
ومازال العبد يكدح.
مازال العبيد محرومين
حتى من فضلات وبقايا موائد السادة الفضية،
ومن خبزهم الأبيض مثل الثلج
من أباريقهم المملوءة بالخمر.
مازلنا نمضي مساء كل يوم في ظل العبودية
نمضي إلى بيوتنا حاملين قليلاً من الخبز
الحاف،
وحين يتسلل المطر من ثقوب اسطحة منازلنا
نرتجف تحت لحفنا الممزقة
منتظرين الشمس حتى نأخذ منها قسطا من
الدفء
مثل قطيع من الكلاب المريضة المنهدة ببعضها،
محاربثنا ومطارقنا مع كدحنا الطويل،
مع معاولنا الدائبة على الأنين منذ قرون،
قد أفرحت قلب التربة السوداء
وتكللت الشجرة المعروفة باسم الدنيا بالأزهار
والورود
مثل حسناء فتية طرية تستسلم للعاشق.
نحن نموت جوعاً تحت هذه الشجرة
أما السادة فيجمعون كل ثمراتها واحدة واحدة
وهم يبرزون أنيابهم المفعمة بالتهديد ...
السادة، الاغوات، الأولياء، النساك
ليخنقوا جميعاً بين أحضان الظلام والفراغ
الأبديين،
يكفينا نهج بسيط، قانون واضح، حق جلي
على طريق النور للأرواح الطاهرة هو :
من يعمل يأكل استخدام الحكاية القديمة
والفلكلور لبناء
مسرحيات على جانب كبير من الأهمية
حرب التحرير الشعبية والأهوال التي رافقتها
والظروف الصعبة التي واجها الشعب التركي،
انعكست تأثيراتها في الأدب الجديد ووجدت لها
صدى كبير في القصة الواقعية التي أعلن عن
ميلادها بعد تلك المرحلة بفترة وجيزة ، وخاصة
القصة القصيرة التي بدأت بتناول المشاكل
اليومية والظروف القسرية المحيطة بالإنسان
التركي، وفي هذا المجال يعد ظهور " عمر سيف
الدين " أول من طرق باب القصة القصيرة في
الأدب التركي، بعد ذلك انطلق تيار الواقعية
الحديثة على أيدي أدباء بدؤوا بمعالجة مشاكل
إنسان الأناضول وجوانب الصراع في حياته،
كما استطاع عزيز نسين وكتاب آخرون عن
طريق المزج بين الحكاية والنكتة الظريفة في
قصص قصيرة استأثرت باهتمام القراء والنقاد
كما أتخذ كتاب آخرون من مشاكلهم اليومية مادة
لقصص جيدة ، وظهرت قصص كتبت بأقلام
كتاب ذوي انتماءات فلاحية تحدثت عن آمال
وآلام سكان الريف التركي وكادحي المزارع
والإقطاع، والتي اعتبرت تيارا قويا ومؤثرا
في القصة التركية من أمثال " يشار كمال " إلا
أن ثمة قصاصين آخرين استلهموا قصصهم من
حياة الناس وحقائق الحياة التركية ، وفرضوا
كل ذلك من خلال تجارب إنسانية ، فكانت
قصصهم تمثل بحق حياتهم الخاصة ضمن إطار
الحياة التركية العامة مضافا أليها تصويرا بارعا
للواقع التركي ، أن الأدب التركي الذي يمتلك
ماضيا عريقا في حقل القصة القصيرة أخذ
يمتلك أيضا ناصية الرواية، فقد خرجت الرواية
التركية من إطارها المحلي إلى الإطار الإنساني
العالمي بفضل روائيين عباقرة من أمثال " كمال
طاهر ويشار كمال وعزيز نسين ومحمود مقال
وفقير بايقورت ويلماز غونيه وجتين التان "
وهكذا نجد أن القصة والرواية قدمت إلى جانب
جهود الشعراء ينابيع صافية لبدايات المسرح
في تركيا والتي وجدت أرضا خصبة لدى
الشاعر والكاتب ناظم حكمت ، فتحولت العديد
من الحكايات الشعبية إلى ملاحم ومسرحيات
ذاع صيتها في أغلب بلدان العالم، وعن التفكير
بالمسرح الحديث ومستوى الاهتمام به ، يقول
الشاعر ناظم حكمت : أنني أبحث في الشعر
الخطابي عن إمكانيات وأصوات جديدة وأن
نلتزم بكتابة أعمال تستطيع أن تمارس تأثيرا
على المشاكل الراهنة ، هل بإمكاننا أن نكون
فنانين حقيقيين إذا لم نعرف أن نبني كلا واحدا
ونؤلف التناغم والبناء الهندسي " ذات يوم
قال ناظم حكمت لرفيقه رشيد كمالي " لن أكتب
أشعارا البتة، ولا أريد أن العب على الكتاب، هذا
الكتاب ذو ال ٣٣٥٠ بيتا الذي أعمل فيه، ليس
كتاب شعر فيه عنصر شعري وقوافي وأحيانا
من وجهة نظر تقنية لكننا نجد فيه بمقدار ذلك
نثرا ومسرحا وحتى سيناريو ، ليس هذا أول
عمل شعري لي فيه أشخاص وعقد فقد حدث
ذلك في بينرجي وتارانتابو وأيضا في نص
بدر الدين "لقد أكتشف ناظم حكمت الطريق إلى
فن الكتابة المسرحية عندما قرر أن يمزج النثر
بالشعر ويستخدم الفلكلور وحكايات عظيمة
من التراث لبناء مسرحيات على جانب كبير
من الأهمية، كان يرصد تطور ذلك الاتجاه في
أشعاره والملاحم التي كتبها، ويكتب انطباعا
ته الأولية عن تلك المغامرة الجديدة حيث يقول
: أعمل في مشاهد إنسانية وكلما تقدمت في
الكتابة كبر شكي، لا أدري ماذا سيعطي هذا
ولأول مرة في حياتي يستبد بي عملي فأحس
بأني لست سيده وأنه يسيطر علي ويرسم
مخططه الخاص وهذا شيء سيئ جدا، أنني
أتساءل بعد خمس سنوات من الجهد عما إذا كان
هذا الكتاب لن يتمخض عن ضجة، عن صرخة
لاشكل لها" ناظم حكمت هو أحد الفنانين الكبار
الذين يملون على الفن أرادتهم فيدخلون عليه
مقاييس جديدة خاصة، ولو أننا أخضعنا إنتاجه
الفني للمقاييس السائدة لوجدنا صعوبة في
فهمه، وإذا ما راعينا ذاتيته فسوف نحس بروعة
وعمق وخصوبة مسرحياته وأشعاره ، يقول
المخرج المسرحي السوفيتي البارز" بلوتشيك
" : لقد كانت لي تجربتان مع مسرح ناظم حكمت
وفي كل مرة يعتريني شعور بالحيرة والتردد
إزاء أعماله التي لاشبيه لها في التراث الدرامي
ولكني فيما بعد كنت أجدني شديد الغبطة بلقائي
مع فكر مسرحي جريء وفريد، لقد أيقنت أن
التوفيق العظيم يمكن أن يحالف المخرج إذا
استطاع أن يوصل للجمهور صوت ناظم حكمت
المتميز عن كل ماعداه من أصوات ولن يتحقق
هذا بالطبع إلا إذا تحرر المخرج من الأساليب
التقليدية " ويعتبر ناظم حكمت من أكثر الكتاب
في مجال الدراما تفلسفاً، إذ لم يكن أكثرهم
تشبعا بتلك الاتجاهات، فقد كان يتنبأ بالحركة
الحتمية للتاريخ ويبشر بحصول التحولات
الاجتماعية الكبيرة ويعمد إلى مسرحة قوانين
التطور الاجتماعي، كذلك فإن البناء الفلسفي
المعقد لمسرحياته لم يكن يحيلها إلى طلاسم
يتعذر أو يستحيل فهمها لدى الجمهور المتلقي
بل العكس تماما، فهو يتمتع بمقدرة فذة على
استخلاص العام والرئيسي والجوهري بين
التفاصيل المتشابكة والمتناقضة وهي التي

تجذب الجماهير الى مسرحه وتستحوذ على رضاهم وإعجابهم ، وفي معظم مسرحيات ناظم حكمت تدور الدراما حول مصير إنسان بطل، يركز الكاتب الضوء عليه من خلال تجارب مفهومة لنا جميعاً مثل العمل والحب والزواج والأسرة وفقد صديق عزيز وزحف الموت على حبيب غالٍ، لقد كان ناظم حكمت واسع الإطلاع على روائع الشعر العالمي قديمه وحديثه، كما كان يهتم أشد الاهتمام بدراسة أشكال الإبداع الفني من الملحمة الشعبية إلى الرسم ومن النقوش البابلية وفك الخطوط المسمارية والزخارف الإسلامية التي تجعله مبهورا إلى لوحات بيكاسو ورموز الحضارة الفرعونية، كان ينهل بعمق وأصالة من تلك الينابيع ولذلك تمكن من التراث الفني الإنساني، ونجد في مسرحياته مزجا بين الواقعية والتجريد بين الأبطال والأنماط والأشخاص العاديين، بين الواقعية والرمزية ، يقول ناظم حكمت في إحدى رسائله المهمة : لقد قررت أن أكتب ثلاث مسرحيات في هذا الصيف وقد أنهيت الفصل الأول من المسرحية الأولى التي عنوانها " فرهاد وشيرين " وفي رسالة أخرى يكتب لصديقه بأنه مقتنع بأن هذا العمل المسرحي غير ناضج، حتى انه غضب عندما كتب الفصل الثالث منه، ويكشف النقاب أيضا عن أنه بدأ العمل في مسرحيته الجديدة التي تحمل عنوان " صباحات " يقول ناظم حكمت في تصديره لتلك المسرحية " بعد سن معينة وبعد نشاط فني معين يغدو الفنان ملزما بأن يخلق الروائع ، وأذا كان لا يستطيع ذلك فيجب أن يعتزل، أنا لا أقول أني اعتزلت ، لكني وعدت نفسي أن أبدع أعمالاً منزهة عن العيب جديرة بالشعب والإنسانية» .

أنني مثل تمثال رودوس
يلبس حذاءاً أمريكيا قياس "٤٥» !
وشركات التأمين
تضمنني ل ١٠١ سنة
ويظن الجميع
جسدي الذي لا تتسع له حدقة العين
من الرخام الخالص.
في حين أنني
أعرف بأن
جسدي العظيم
ما هو إلا قالب من الجص.
أعرف
لأنني حسبت:
صدري الواسع
سينفجر
بعد عدد لا يزيد عن العشرات من السنين !
ليس في رأسي غير همّ واحد
وهو :
للذهاب
من هنا
إلى هناك
أقول لمن يبنون الجسور المعلقة
أنني لم أنته من صياغة التوابيت المناسبة
لجسدي !
فصدري الواسع
سينفجر!
....
ليست خطواتي الواسعة، بطول ديكامتر،
أحذيتي الأمريكية ذات ال "٥٤»
كافية!
لا بد من الجري،
مثل ذلك الجري الذي يحدث في الالومبياد.
لا بد من الجري السريع !

الأشكال والمضامين في مسرح ناظم حكمت

نجد وحدة الفكر بمثابة الركيزة القوية التي توحد العناصر الفنية المختلفة ويقيم الكاتب من خلالها جميعا صرحا جماليا متماسكا وانطلاقا من هذه الزاوية ، نرى أن الفنان العظيم لا يتردد في الدخول إلى نسيج العمل الدرامي، وهو يهدف إلى كل ما يؤكد ويوضح ويجسد الفكرة التي تقوم عليها الدراما ، وبدون أدنى تردد يستبعد كل ما يمكن أن تحيا الفكرة بدونه على خشبة المسرح ، وتبقى السمة المميزة لمسرحه هي العداء المتأصل للتطفل البرجوازي ويظهر ذلك في جميع مسرحياته وأن اختلفت المعايير والموضوعات والمعالجات والأشكال الفنية والفكرية التي يعمد إلى استخدامها أو الفترات الزمنية التي يضعها إطارا للعمل الذي يشرع بإنجازه لقد لمست احتفاظ ناظم حكمت بكراهية كبيرة واحتقار غير محدود للقوى التي تستغل الإنسان ، ومن هنا كانت مسرحياته بمثابة مدافع قوية تطلق قذائفها المحكمة التصويب على مواقع الخلل والتردي في نظام العالم القديم، ويشمل ذلك قوى الاستعمار والتخلف والاستغلال وتجار الحروب ، ففي مسرحية " سيف ديموقليس " يحذر ناظم حكمت البشرية جمعاء من أن مصيرها في ظل سياسة التوازن العسكري هو على حافة الهاوية ، حيث يخيم خطر شبح التوازن الذري الرهيب الذي يرى الشاعر مصير البشرية بموجبه معلقاً على الحالة العصبية التي قد تنتاب أحد الطيارين الذين يطوفون العالم بطائرات تحملش شحنات من القنابل الذرية، ناظم حكمت يحذر البشرية من أن صدفة حمقاء قد تؤدي إلى كارثة رهيبة ينتج عنها تراجيديا مأساوية ففي مسرحية سيف ديموقليس تعقد الدهشة عقول المشاهدين لسذاجة وبساطة أحلام البطل الذي وضع له رمز (أ. ب) فهو يطمح في الحصول على عمل والظفر بالفتاة التي يحبها ويتمنى أن يصبح أباً وهو يخشى أن تحول الحروب دون تحقيق أحلامه ولهذا يصاب بالذعر لمجرد التفكير بقنبلة ذرية هوجاء يمكن أن تسقط فوق عربات الأطفال وباقات الزهور، غير أن الواقع المبني على الاستغلال يحطم تلك الأماني ، المتواضعة إذ يسلب (أ. ب) كل شيء حتى حق الأمل وبذلك يسلبه التسلط القسري كل ما هو إنساني ثم يحوله أخر الأمر وقد تحول وحشا كاسراً حقوداً يريد أن ينتقم، يريد أن يدمر كل شيء لأنه لم يعد يملك شيئاً، وتروق له فكرة التدمير الذري انتقاما للكرامة الشخصية المهدرة، ويجري هذا التحول على نحو واضح ومفهوم ومقنع إلى حد يثير أعمق العواطف الإنسانية ويجعل مشاهد المسرحية ومهما كان موقفه أن يحبس أنفاسه وهو يتابع مصير الشخصية الرئيسية في المسرحية ، يرى بعض الذين كتبوا عن ناظم حكمت، انه بعد أن تم عرض مسرحية " سيف ديموقليس " أقيمت ندوة جماهيرية مفتوحة لمناقشة مضمون المسرحية في أكبر مسارح موسكو ، حيث وقفت شابة عاملة وقالت : أن المسرحية قد فرضت عليّ أن أفكر في جوهر السعادة الإنسانية" وكانت تشير بعفوية صادقة إلى جوهر مضمون المسرحية ، ثم تابعت تقول "أن السعادة برأيي تتوفر حين يشعر الإنسان في الصباح بحنين دافق إلى العمل ويشعر في نهاية اليوم بنفس الحنين إلى البيت " التجريد لدى الكاتب لا ينتزع أبطاله من أرض الحقيقة والواقع فهو يحركهم في معترك الحياة تتنازعهم قوى الموت والمجابهة والصمود والتخاذل وكذلك نوازع الأنانية والتضحية ووضوح اليقين والضياع والبطولة والخيانة والطموح إلى المنفعة الشخصية والسعادة في الاحتراق لتبديد ظلمات العالم ، " فيما يخص كل عمل فني وسواء تعلق الأمر بالأدب أو فن العمارة أو الموسيقى فأن السؤال الذي أطرحه على نفسي في آخر المشوار هو ماذا يقول هذا

في مسرحية " المحطة " نتابع بشغف كيف أثبت الأسير التركي الأمي المتخلف أنه بطل حقيقي لم يبخل بحياته ، بل ضحى بها في سبيل أهداف الثورة ، ولا شك أن هذا التنوع الكبير في مسرح ناظم حكمت حيث الشخصيات الكثيرة والأساليب الفنية المتنوعة كل ذلك يسبب صعوبة كبيرة للمخرجين ، كما هو الحال في مسرحية " هل كان ايفان إيفانوفيتش موجوداً " التي ترجمت الى اللغة العربية ونشرت بعنوان " جوهر القضية " في هذه المسرحيات تصعب مهمة المخرج المسرحي في إبراز المضمون الاجتماعي والسياسي داخل حالات التجريد كشكل ، ويرى ناظم حكمت آن العمل الفني إذا كان إلي جانب السلام والإنسانية والتقدم كان مبدعه واقعيا

العمل وكيف يعبر عن وجود الإنسان " عندما كان يعيش ناظم حكمت في تركيا كان يقف بوجدانه وفنه مع المعركة وهي على أبواب مدريد مع كفاح الشعب الأسباني ضد الفاشية ومع بسالة التلميذة الروسية "زوبا " التي دوخت بصمودها زبانية العدوان الهتلري، وفي المنفى يزداد إحساس ناظم حكمت بانتمائه إلى الإنسانية ككل نجده من باريس يكتب كوميديا عن نموذج المنافق الفرنسي ، ومن براغ يختار أسطورة تشيكية ،ومن موسكو يكتب الكوميديا الساخرة " هل كان أيفانوفيتش موجوداً " في هذه المسرحية يوجه الكاتب النقد اللاذع لظاهرة تقديس الفرد في روسيا وتعتبر هذه المسرحية من أعظم الآثار الفنية التي شجبت تلك المرحلة الحالكة من تاريخ الاتحاد السوفيتي ، ويرى العديد من النقاد السوفييت أن تلك المسرحية جزء من الأدب الروسي بالرغم من أن كاتبها مواطن تركي ، أن حالة من الكآبة تصيب المتلقي عندما يتابع الشخصية الرئيسية في المسرحية ، ذلك العامل الذي يفيض حيوية وهو ينحرف تحت إغراء المنصب القيادي وحالة العظمة المجوفة فيتحول الى كائن فارغ وبغيض لولا أن الجموع الواعية تتدخل وتنقذه من نفسه ، وفي مسرحية " المحطة " نتابع بشغف كيف أثبت الأسير التركي الأمي المتخلف أنه بطل حقيقي لم يبخل بحياته ، بل ضحى بها في سبيل أهداف الثورة ، ولا شك أن هذا التنوع الكبير في مسرح ناظم حكمت حيث الشخصيات الكثيرة والأساليب الفنية المتنوعة كل ذلك يسبب صعوبة كبيرة للمخرجين ، كما هو الحال في مسرحية " هل كان ايفان إيفانوفيتش موجوداً " التي ترجمت الى اللغة العربية ونشرت بعنوان " جوهر القضية " في هذه المسرحيات تصعب مهمة المخرج المسرحي في إبراز المضمون الاجتماعي والسياسي داخل حالات التجريد كشكل ، ويرى ناظم حكمت آن العمل الفني إذا كان إلي جانب السلام والإنسانية والتقدم كان مبدعه واقعياً ، المهم أن يكون العمل الفني قادراً على تحريك الناس إلى الأمام وليس الى الوراء ، أيضاً قادراً على أن يكون غارساً للقيم النبيلة والخيرة في أعماق الناس ، وللرمزية في مسرح ناظم حكمت روعة أخاذة وعميقة ، ففي مسرحية " سيف ديموقليس " يعرض ناظم حكمت العديد من الرموز ، نحن نسمع عن خروف الحظ الأبيض الذي يحاول " أ . ب " عبثاً أن يمتطيه ولكن الفشل يترصده ، ونرى الجرو الذي يستميت في إرغامه على اللعب لكن الجرو يرفض بأباء ولا ينصاع لإرادة رجل ضعيف فهو لا يعترف بحق القوي ، إلا باليد القادرة على التلويح بالعصى ونشاهد محفظة النقود ملقاة على قارعة الطريق إلى أن يلتقطها القوي وهو يزيح " أ . ب " المتخاذل إن هذه الرموز كلها تشير إلى العالم الرأسمالي الذي يحطم الإنسان العادي بقسوة وشراسة ، وفي مسرحية " البقرة " التي هي ليست حيواناً حيا متحركا في ضرع وقرنين وإنما هي رمز إلى الملكية الخاصة التي تستذل الأبطال وإيفان إيفانوفيتش ليس مجرد موظف يتملق رئيسه وإنما هو رمز إلى الميت الذي يطوق خناق الحي ، أيضاً رمز إلى البقايا الطفيلية التي تمتص دماء الشرفاء وتهدد ورود الحرية بالذبول ، وأيضاً رمز إلى جحافل المنافقين والانتهازيين والوصوليين من أيتام القوى الرجعية والعملية الذين يناهضون الاشتراكية والتحرر ، فيلجأ ون إلى تغيير جلودهم كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، فهم يكيلون الإطراء والمديح للقائد المنتصر المعقودة عليه آمال الجماهير حتى ليوهموه بأنه صانع النصر وهو روحه وعقله، وبذلك يحيلون أعراس الحرية إلى مأتم كبير عندما يتحول إلى دكتاتور بغيض.

حكاية حب، أو فرهاد وشيرين

تعتبر مسرحية الجمجمة ذات صفة شمولية عامة تصور فعل الإمبريالية الخبيث والشرس وعملها المستميت في الحفاظ على مصالحها، إذ تحول القيم المعنوية والمادية إلى سلع تباع وتشترى وتدمر منها ما يقف في وجه أرباحها حتى لوكان في ذلك دمار للبشرية وفعل مناقض للحضارة والتقدم ، والمسرحية في مجمل المضمون الذي تطرحه تقترب كثيرا من طرح الصراع الدائر بين دول العالم الثالث والإمبريالية، وهي لا تختار زمنا معيناً ، فهي تدور في مكان وهمي يرمز إلى البلدان التي ما يزال نظامها الاقتصادي رأسماليا، أما الزمان فقد يكون بداية القرن العشرين أو منتصفه حيث يعمل الدكتور " دالبانيزو " بجهد متواصل لاكتشاف مرض السل، ولعل أشهر مسرحيات ناظم حكمت هي " حكاية حب أو شيرين وفرهاد" وهي من أشهر القصص في الأدب الشرقي القديم وقد نظمها الفردوسي في ملحمته الشعرية المعروفة باسم الشاهنامة وقد استلهمها ناظم حكمت وعرضها من خلال المسرح الشعري بعد أن غير في جوهرها تغييرا كبيرا ، وأبتكر لها شخصيات أخرى ورسم فرهاد بهيئة فنان رقيق والعلاقة بينه وبين شيرين علاقة حيوية إنسانية متعددة الجوانب ، كما عرض مادته بصورة درامية جديدة وتناولها بشكل مبتكر وضمنها قيماً إنسانية خالدة كالتضحية والعمل الجاد من أجل الآخرين وناظم حكمت يؤمن بأن الدراما ليست مجرد عمل فني بحت بل يتحول إلى عمل تعليمي متفقاً في ذلك مع النظرية الملحمية البريختية الى أبعد الحدود ، وتحفل مسرحية شيرين وفرهاد بحوار شاعري جميل، وهي بحق تعد من أعمال ناظم حكمت المسرحية المتكاملة، أضاف أليها سحر تراث الشرق الغني المتنوع قيماً فكرية وشكلية مهمة وقد نجح الكاتب في التحدث فيها عن عذاب الإنسان وأنكساراته وأحلامه التي تتداعى ووظف بسموّ كبير مفاهيم التضحية المجردة من المنافع الذاتية ، كانت الروح الشرقية الساحرة المتصارعة مع الظلال العديدة التي تغلف الكثير من جوانب الحياة المشدودة إلى القيم البالية ذات القوانين والأعراف الصارمة ، الفلكلور الشرقي المنتخب وفق رؤيا متناغمة وذكية ألقت الكثير من القيم الجمالية والتشكيلية وصورت بدقة فضاءا شغل الكثير من الخيال في عقول تتوزع على خريطة العالم ، استفاد الكاتب كثيرا من الأجواء الساحرة في ألف ليلة وليلة وأفرد للموروث التركي الفلكلوري مساحة بدت وكأنها هي الطيف الملون الذي يصنع تلك الأجواء الساحرة والغريبة، تقترب شيرين وفرهاد من المأساة التي تعرضها القصة الذائعة الصيت في الأدب العربي " قيس وليلى " والفرق هنا أن شيرين وفرهاد حكاية حب موضوعة على العكس من الحكاية العربية التي تنتمي إلى فترة زمنية معلومة والى تأطير تاريخي واضح والى تفاصيل تثبتها كتب التراث والتاريخ و السير الشعبية ، وشخصياتها من نسج الحقيقة والواقع وليست من الخيال ، والفارق بين التناول لدى ناظم حكمت واحمد شوقي في طريقة العرض والمدرسة الفكرية والمنهج والإطلاع والدراية التي تبدو متقدمة كثيرا في شيرين وفرهاد ، يضاف إلى ذلك التقطيع الشعري والمنهج الحديث الذي يقترب من الشعر الحر الذي ظهر جليا فيها، وعندما يكتب ناظم حكمت مسرحية أخرى يضع لها عنوان " الرجل المنسي " وذلك في العام ١٩٣٤ والتي تعتبر برأي النقاد الأتراك بأنها كانت واحدة من المسرحيات التي استمدت موضوعها من أرشيف العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في تركيا الحديثة وهي كما عودنا الكاتب ممر الى هموم الإنسان التركي وعذابا ته وعوامل الاصطدام القسري بين المؤسسة العسكرية والأصوات التي ترتفع لتطالب بمساحة كبيرة للحرية وفق عالم صار يتحرك بسرعة كبيرة وتتغير فيه القوانين ويحصل الأفراد على حقوقهم المشروعة بينما ترسف شعوب العالم الثالث والشعب التركي نموذجا منها في أغلال العبودية ومصادرة الحرية وتكرار الانتخابات المزيفة والاحتكام أبدا إلى المؤسسة العسكرية في ترتيب أوضاع البيت التركي بعيدا عن الأطر الديمقراطية وما جرى للشاعر ناظم حكمت يمثل دليلا حيا يتكرر مع الكتاب والشعراء ليس في تركيا وحدها بل في عموم دول العالم الثالث تحت خيمة الأنظمة العميلة المرتبطة بالسياسات المشبوهة

مع زوجته ووالدته

تمثل قصائد الشاعر التركي ناظم حكمت ، بداية حقيقية لحركة الترجمة العربية لأعمال الأدباء غير العرب ، فترجمة قصائده إلى العربية رفع عنا حاجزا بين الكتابة العربية وبين الكتابة المترجمة إليها ، ونكاد لا نميز أن الشاعر بأنه شاعر تركي ، بل يوحي إليك بأنه شاعر عربي يعيش معاناتك وأوهامك وأحلامك ، وهذا ما يعطي لنا رغبة في السعي الى ترجمة الكتب الأجنبية الى العربية ، للاستفادة من الواقع الأدبي الأجنبي ومحاولة دراسته ومزج الافكار الجديدة منه مع العربية على الرغم من الكثير من الشعراء تأثروا وترجموا لأدباء غربيين الا ان هذا التأثر وهذه الترجمة ظلت ضعيفة الى حد ما .
الشاعر ناظم حكمت كان يمثل العودة الى الحياة ، فهو شاعر يبث روح الكلمة التركية بذكاء العقل التركي وتدبره ، المبدأ والكلمة رمزان بدء معه ، وانتهى هو بهما .

ناظم حكمت

القصيدة تعيد كاتبها الى الحياة

اثير محسن الهاشمي

الشاعر كان يمثل (المحاولة) للتمرد على الزمن الأغبر الذي كان يعيشه ، فهو يحاول ان يفجر سلالة الحب والحياة الجميلة من وسط اللعنة والظلم والطغيان والتسلط والقيود .
شخصية الشاعر كانت تشبه الى حد ما شخصية (السجين) في قصيدة (the prisoner of chilion) (للشاعر lord byron والذي كان يمثل المعاناة والوحدة والعزلة عن العالم وسجنه في احدى زنزانات السجون التركية لمدة طويلة من الزمن ، كل هذا جعلنا نشبه الشاعر بشخصية السجين المشهورة لبايرون .
الشاعر لم يكن يحاول الهروب من الواقع الذي يعيشه ، فلهذا كان ضحية للظروف العصيبة التي كانت سائدة ، الا انه ظل سيدا للكلمة الحرة .
جسد الشاعر الحياة بشكل جديد وغريب بعض الشيء ، الحياة عند الشاعر كانت متمثلة بالحرية ، الحرية عنده هي مفتاح لواقع هادئ ، ولهذا فالصورة الشعرية عنده (فعل شعري) أكثر مما هي تشبيه وتخيلات وقرن مفردات ، فعل شعري يرتكز على التجربة والمعاناة ووضوح الرؤية ، وتجربته في قلب فرديتها تعكس ملامح من تجارب الآخرين ، وهذا ما جعل لشعره صفة الشمول الانساني (١)
يقول :-
أفضل من يولدون
من التراب والنار والبحر
سيولدون منا
وسيوضع الناس ايديهم
في ايدي بعضهم
دون خوف وتفكير
وسهتفون وهم يحرقون في النجوم
ما أبهي الحياة !! (٢)
لقد امتزجت (الأنا / نحن / الكل) في شعره امتزاجا عضويا في وحدة غير قابلة للانفصام عصية على التمييز بين الشكل والمضمون .
لقد أفلت الشاعر من فخ جعل التلقي والأداء معادلة شعورية لصيغ الفكر الذهنية ، الشعر لا يجانب الفلسفة ، ولكنه بالمقابل لا يحتويها على شكل مقومات ومفاهيم منظومة ، الأفكار في الشعر ضمنية ، رموز ، إيحاءات ، أحاسيس ، نتلمس في ثناياها الفكرة الشعرية ، ونستخلصها من الألفاظ في صيرورتها تعبيرا (٣) يقول :-
النجوم لا عد لها ولا حصر
الأشرعة مطفأة
المياه داكنة الظلمة
والبصر يمتد مستقيما إلي ما لا نهاية (٤)
الشاعر صاغ من سنوات السجن الطويلة فلسفة خاصة بالسجن تقوم على الصمود ، وعدم استهلاك النفس حسرة على ما هو خارجه ، وعلى الثبات في النضال لأجل الوطن ، والقضية ، والناس الذين هم ابناء الوطن وجوهر القضية ، يقول :-
لتتوحد ثغور البلاد فلا تفتح لغاصب ابدا
ولينتف استعباد الانسان للانسان
هي ذي قضيتنا
حياة حرة ، فردية ، مثل شجرة
رفاقية ، جماعية ، مثل غابة ..
تلك هي حسرتنا (٥)
الحياة عن ناظم حكمت تعني رغبة في الخلاص ، وان يكون متشبثا بها ، حتى ولو كان يعيش في اسوء الامور ، الشاعر تراه دائما متفائلا على الرغم من الواقع المرير الذي يعيشه ، وكذلك انواع الامراض التي تكاثرت عليه اكثر من ان تحصي ، لكنها لم تبلغ ان تلوي من عزيمته (اشعر بانني بكامل لياقتي كمصارع ، مقاتل ، لاعب كرة قدم ، طيار ، واذا لم اتوقف ساكتب مئة بيت في اليوم ..) (٦)
الشاعر محكوم بالموت ، الا انه ظل متفائلا بالحياة على انه سيعيش مئة عام قادمة ، انه يدافع ، يتمرد ، يحاكي ، يثور للدفاع عن الحياة او محاولة للتشبث بها ، انه صانع لها ومحافظ عليها ومدافع عنها .
كان قد سُجن بسبب دفاعه الشديد عن حرية شعبه ، الشاعر كان يمثل الرمز للدفاع عن حرية شعبه وعن كرامته في سبيل حياة اجمل ، كان قد تمرد على السلطة الحاكمة لانها كانت لا تمثل طموح الشعب ، يقول : ((ان جريمتي الوحيدة هي حبي الشديد لشعبي ووطني)) (٧)
الحياة عند الشاعر كانت انموذجا رائعا لعشقه ، لحبه ، لولعه بالمرأة ، فالمرأة عنده الحياة ايضا ، يقول :-
الحياة : عمل يزهو بالأمل
حبيبتي
الحياة : عمل جدي مثلما احبك (٨)
ورغم ان الحياة لم تهادنه ولم ترفق به ولا بإخوانه ، بؤساء الأرض ، ولم تسخ عليه بمقدار ما حاول ان يسخو به على الناس ، فان أية مرارة لم تتطرق يوما الى قلبه أو شعره ، ففي اعماقه ظلت تضيء شعلة من الايمان بجمال الحياة وبالولاء لها ، يقول :-
ان عالمنا كبير وفسيح وجميل
وانه لرحب شاطء البحار
لدرجة ان بامكاننا جميعا ان نستلقي كل ليلة
جنبا الى جنب على الرمال الذهبية
وان نغني المياه المشعشة بالنجوم
كم هي حلوة الحياة ، يا تارانتا بابو (٩)
أخذ ناظم حكمت الحياة بجد يسمو بها من هذه المقايضة المقيتة من اجل القضية والناس وكفى ، يقول :-
نستطيع أن تموت لأجل الناس
لأجل اناس لم تر وجههم قط
بينما لا أحد يغصبك على ذلك
ورغم انك تعلم ان الحياة
اجمل ما في الوجود
والاكثر حقيقة
فان عليك ان تأخذها بجد
الى درجة
انك في السبعين مثلا
ستغرس اشجار الزيتون
ليس لابنائك ابدا
بل لانك لا تؤمن بالموت
رغم خوفك من الموت
ولان الحياة ترجح كفة الميزان (١٠)

الشاعر يجعل من الموت الوجه الآخر للحياة ، هو الحقيقة الأخري ، ولنفرض ستموت بحادث ما ، فهل يمنعك هذا ، وانت مريض او تقاتل او في سجن ما ، ان تفكر باشياء جميلة ، وان تثق ان الحياة بعدك ستستمر ، والشمس ستطلع ، وانك مع الذين بعدك ، بقاء هذا الوجود الذي ينتقل في صيرورته ، من جيل لآخر ، لكنه يرتقي وتثمر فيه الكلمة الطيبة :-
لنفرض : انك مريض ، والعملية خطيرة
وأنت معرض
الا تقوم ابدا عن الطاولة البيضاء
ستشعر حتما بالحزن ، لذهابك باكرا
لكنك ستضحك ايضا لكلمة طيبة
وتنظر من النافذة هل يهطل المطر
وستنتظر بلهفة كل يوم
آخر نشرة للاخبار (١١)
الشاعر يقابل الاشياء باشياء اخري ، فهو يجعل من انتظار الموت انتظارا للحياة ، وقليلون اولئك الذين لم يسمعوا للعدم ان يطأ عتبة جباههم ويخذلهم ، فهو من بين الذين قدموا الاستشهاد عبر الاصرار الذي يؤرخ عظمة الانسان .. وبين السلطة والاصرار يظل الا ستئناف قائما ، لانه حركة تمثل النقيض لعالم موجود ، أي انه (لا) الضرورية لبقاء (نعم) (١٢) .
ان محبة الكون الى هذه الدرجة وبكل هذه الاحتمالات أحلاها وقائع النضال في سبيل الغد ، هي وحدها التي تسمح لك ان تقول (لقد عشت) دون ذلك ما الحياة ؟ همك ، كما قال احد معلمي عمر فاخوري ان تأكل وتنام ؟ والمسرات ، اغلاها ، قلب يخفق مع قلبك وذراعا امرأة وانت ، على سريرها ، تستقبل كفارس ترجل توا عائدا من المعركة !
كوننا الشاسع سيبرد ايضا ، ينطفئ ، ويندحرج في ظلمات اللانهاية ، ان ذلك يهمك ايضا ، عاشق كون انت ، ولا بد ان يهمك هذا ، ولاجله تحزن ، وبذلك تستحق ان تقول (لقد عشت) فالعيش ان تحب بغير حذر ، بغير حساب ، بغير تفكير بالثمن ، يكفيك ، كما العاشق ، انك احببت وستكتشف انك محبوب ايضا ، وان الدورة القصيرة لعمرك مهما يكن عدد سنواتها قد كانت كسنبلة القمح ملأي بالحبوب الناضجة ، فالحياة عنده مليئة بالامل وعدم الى أس :-
عيناي لا تتعبان من النظر الى الاشجار
فهي خضراء جدا ، مليئة بالامل
الى ان يقول :
ان تكون سجينا ، ليست هنا المسألة
فالقضية هي الا تستسلم (١٣)
الشاعر يجاوز الامل الى ابعد من ذلك ، هو يسعي الى تحقيق الوجود والواقع المنشود بالحب والطمأنينة ، يقول :-
شيء جميل التفكير بك
شيء مزهو بالأمل
شيء مثل الاصغاء
الى اجمل نشيد
من اجمل صوت للعالم
لكن بعد ، الامل لا يكفيني
أنا الآن لا أرغب في الاصغاء للنشيد
أريد ان انشد النشيد (١٤)
الشاعر دائما يوجه خطابه الشعري اما من السجن أو من المنفي ، الا انها خطابات تكاد تكون خالية من فقدان الأمل ، فهو كل ما يمر به من حزن ومعاناة الا انه ظل يبحث عن حياة خالية من المأساة والظلم ، مع انه يرمز للدنيا بالسفينة التي يقودها القرصان وانها آيلة للغرق ، الا انه يسعي الى ان يؤسس حياة جديدة :-
هذه الدنيا
هذه سفينة القرصان
ستغرق
ومثل جبينك حرا
سنؤسس يا برايتي (١٥)
عالما متفائلا ومبتهجا (١٦)
الشاعر عاش الحياة عرضا وطولا وعمقا كشيء جميل ، جدير بان يتعايش وفي كل الظروف .
لقد كان بحق ابنا لبيئته ومواطنا لوطنه ، وانسانا على رحب الانسانية ، وثائرا على مدي الثورة ، وعاشقا بكل جوارحه واعصابه ، كان بحارا طوال عمره ، جاب كل البحار ، صارع ، عشق ، يئس ، أمل ، جرب ، مارس واخترع ، وكان في ذلك كله عفويا وواعيا وكان صديقا ، لذلك كان اصيلا في معاناته ولغته وانتمائه ووطنيته وانسانيته (١٧)
ويبقي شاعرا للحياة حتى في اصعب الظروف ، انه يعيش الىوم بحياة قصائده .

الهوامش

(١) ترجمة حنا مينة ، ناظم حكمت ، ص١٥ // دار الاداب - بيروت - ١٩٧٨
(٢) ترجمة عبد الوهاب الداقوقي ، قصائد ملحمية لناظم حكمت ، ص ١٤ // بيروت - ١٩٨٠
(٣) ترجمة حنا مينة ، المصدر نفسه ، ص١٦ // دار الاداب - بيروت - ١٩٧٨
(٤) ترجمة فاضل لقمان ، ملحمة الشيخ بدران ابن قاضي سيماونة لناظم حكمت ، ص ٣٥ // بيروت - ١٩٨٠
(٥) ترجمة حنا مينة ، المصدر نفسه ، ص ١٢٢
(٦) المصدر نفسه ، ص ١٢٧
(٧) ترجمة عبد الوهاب الداقوقي ، المصدر نفسه ، ص ١٧
(٨) ترجمة عبد اللطيف بندر أوغلو ، قصائد مختارة من الشعر التركي المعاصر ، ص ٣٧٦ // بغداد ١٩٧٨
(٩) د. على سعيد ، من شعر ناظم حكمت ، ص ١٣
(١٠) ترجمة حنا مينة ، المصدر نفسه ، ص ١٣٦
(١١) المصدر نفسه ، ص ١٣٧
(١٢) مقال لـ عزيز السيد جاسم ، لماذا يبتدئ الشعر ، مجلة الاداب ، كانون الاول ، ١٩٦٩
(١٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٨
(١٤) ترجمة عبد اللطيف بندر أوغلو ، المصدر نفسه ، ص ٣٧٧
(١٥) برايا : زوجة ناظم حكمت
(١٦) ترجمة عبد اللطيف بندر ، المصدر نفسه ، ص ٣٧٩
(١٧) ترجمة حنا مينة ، المصدر نفسه ، ص ١٤٠

الشاعر عاش الحياة عرضا وطولا وعمقا كشيء جميل ، جدير بان يتعايش وفي كل الظروف.
لقد كان بحق ابنا لبيئته ومواطنا لوطنه ، وانسانا على رحب الانسانية ، وثائرا على مدي الثورة ، وعاشقا بكل جوارحه واعصابه ، كان بحارا طوال عمره ، جاب كل البحار ، صارع ، عشق ، يئس ، أمل ، جرب ، مارس واخترع ، وكان في ذلك كله عفويا وواعيا وكان صديقا ، لذلك كان اصيلا في معاناته ولغته وانتمائه ووطنيته وانسانيته (١٧)
ويبقي شاعرا للحياة حتى في اصعب الظروف ، انه يعيش الىوم بحياة قصائده

بابلو نيرودا في مذكراته:

ناظم حكمت شاعر أسطوري

والأدب لا يستطيع أن يتخذ موقفاً مستقلا إزاء قضايا الشعب الجوهرية...

لم أقرأ كتاباً يطفح بالسحر والحياة والتجربة الإنسانية الغنية ويضج بأحاديث وانطباعات عن أحداث ووقائع انغرزت عميقاً في الذاكرة كالحرب الأهلية في اسبانيا والمقاومة الوطنية الفرنسية ضد الاحتلال النازي وعن شخصيات أدبية وفنية وسياسية تركت بصماتها في التاريخ، كما هو كتاب المذكرات لشاعر تشيلي الكبير والحائز على جائزة نوبل لآداب في عام /١٩٧١/ بابلو نيرودا والمعنون: «اعترف بأنني قد عشت».

ولكي لا نفقد الكتاب سحره ودفئه المخبأ بين كلمات تشبه للوهلة الأولى فقط غيرها من الكلمات، حالة لا تخلو من الشقاوة والفكاهة وتدخل دون استئذان إلى ما بين طياته لتنبش بفوضوية تعودنا عليها عن تلك المذكرات المتداعية بانسيابية من روح رطبة إلى حد السيلان، والتي ترصد بتعابير وصور شاعر مبدع حياة حافلة بالفرح والألم، من طفولة نبتت في الغابة التشيلية وتعطرت بشذى الغار البري وشجيرة «البولدو»(١) الداكنة إلى تأملات رومانسي مجرّب يرى وطنه يتداعى تحت دكتاتورية بينوشية المقيتة.

فهذه المذكرات ليست بمذكرات شاعر، بل أكثر منها، فبابلو التقط صوراً من الحياة ومن الناس أكثر مما يلتقطه شاعر، ولم يعش في ذاته فقط، بل عاش في حيوات الآخرين، لذلك سأقوم بعملية قرصنة صغيرة وبيضاء وأعرض دون تدخل جانباً مما التقطته ذاكرته الخصبة وهو يعود بها إلى تلك الأراضي السوفيتية الممتدة إلى ما لا نهاية والتي يدافع «أورورا»(٢) وأفكار لينين هدت أسوار الماضي من حولها وفتحت أمام شعبها أبواب التاريخ».

هو يطارد أحلامه في تلك الحقبة الجميلة، يتذكر فجأة أحد أصدقائه المنفيين عن وطنه كما حالته، الشاعر التركي ناظم حكمت فيكتب في مذكراته:

كنت على الدوام أزور في موسكو أو في الريف شاعراً كبيراً آخر ألا وهو الشاعر التركي ناظم حكمت وهو كاتب خرافي أسطوري، كانت حكومة بلده الغريبة عن شعبه قد سجنته خلال /١٨/ سنة لقد أتهم ناظم بأنه كان يريد إثارة فتنة وتمرد في صفوف البحرية التركية فأدانوه بكل عقوبات جهنم.

جرت المحاكمة على ظهر بارجة عسكرية. كانوا يحكون لي كيف أنهم جعلوه يمشي حتى درجة الإنهاك على جسر الباخرة ومن بعد أدخلوه إلى المرحاض حيث كان الغائط يعلو أكثر من نصف متر، فشعر أخي الشاعر بالإغماء وخارت قواه. كانت الرائحة الكريهة تجعله يتقزز ويرتعد. عند ذلك، فكر:

لابد أن الجلادين يراقبونني من نقطة ما، فهم يريديون أن يروني أتداعى، يريدون أن يروني تعيساً بائساً، فانبعثت قواه في أنفة وعنجهية وبدأ يغني، أولاً بصوت منخفض، ومن بعد بصوت أعلى، في النهاية شرع يغني ملء حنجرته، غنى الأغاني كلها، الغزل الذي كان يتذكره، جميع قصائده التي نظمها، مواويل الفلاحين، أناشيد شعبه النضالية غنى كل ما كان يعرفه من أغاني.

وهكذا انتصر على الرجس والنجاسة والعذاب، عندما قص على ذلك، قلت له:

«يا أخي، إنك بهذا قد أجبت عنا جميعاً. فلم نعد نحتار فيما نفعله، فها نحن جميعاً معشر الشعراء نعرف متى يجب علينا أن نبدأ بالغناء».

كان يحكي لي كذلك عن آلام شعبه، عن الفلاحين الذين يضطهدهم في قساوة سادة تركيا الإقطاعيون. كان ناظم يراهم وهم يأتون إلى السجون جماعات جماعات، كان يراهم وهم يستبدلون التناك بقطعة الخبز التي كانوا يعطونهم إياها كحصة وحيدة وجراية يتيمة.

أخذوا ينظرون إلى مرعى الباحة في السجن بذهول، من بعد بانتباه وتركيز، ثم بشراهة ونهم. ذات يوم التقطوا أقذاء الحشائش والأعشاب وقربوها من أفواههم ثم راحوا يقتلعونها حزماً حزماً ملء الأيدي. فيبتلعونها إلى أن انتهوا: أن يرعوا بأربعة أرجل كما الدواب.

لقد عاش ناظم: الذي كان عدواً لدوداً للاعتقادية، سنين طويلة منفياً في الاتحاد السوفييتي. إن حبه لهذه الأرض التي حضنته لتمثل في هذه الجملة التي قالها: «أنا أؤمن بمستقبل الشعر، أؤمن لأنني أحيا في بلد يشكل الشعر فيه أكثر مقتضيات الروح لزوماً وضرورة».

في هذه الكلمات تنوس أسرار كثيرة لا تدرك من على بعد، إن الإنسان السوفييتي والأبواب منفتحة أمامه على المكتبات كلها والقاعات جميعاً والمسارح قاطبة، لهو مركز اهتمامات الكاتب السوفييتي.

ليس من مجال لنسيانه حين يحتدم النقاش حول مصير العمل الأدبي. فمن ناحية، يجب على الصيغ الجديدة، أي التجديد الضروري لكل ما يوجد، أن تتجاوز القوالب الأدبية الجاهزة وأن تعمل على تحطيمها.ومن ناحية أخرى كيف يمكن للأدب أن لا يرافق خطى ثورة عميقة مديدة؟ كيف يمكن له أن يبتعد عن المواضيع الأساسية، الانتصارات ، المنازعات، المشاكل الإنسانية، عن خصب وحركة وتناسل شعب كبير، يواجه تغييراً شاملاً للنظام السياسي الاقتصادي الاجتماعي الذي كان سائداً في بلده؟ كيف يمكن له أن لا يتضامن مع هذا الشعب الذي يهاجمه غزاة شرسون ويحاصره مستعمرون لا يرحمون، يعكون صفو الأجواء الإنسانية كلها؟ أتستطيع الآداب والفنون أن تتخذ موقفاً مستقلاً استقلالاً هوائياً هشاً إزاء أحداث جوهرية ومجريات أساسية

الحياة جميلة يا صاحبي

ناظم حكمت

اذا كنت تؤمن بالوطن
بالعالم وبالانسان ..
فسيقودون خطاك الى
المشنقة
أو سيلقون بك في
الزنازين
ستبقى هناك عشر سنين
أو ربع قرن
ولكن مهما يكن الأمر
علىك أن لا تفكر حتى
ولو للحظة
أنّهم لو علّقوك كالعلم
على العامود
لكان ذلك أفضل ...
علىك أن تتمسّك
بالحياة
رغم مسحتها التعسة
فواجبك أن تقاوم
وأن تعيش ليوم آخر
نكاية بالأعداء
بعض نفسك سيبقى في
الزنزانة وحيدا
كحجر في قاع البئر
لكن البعض الآخر
سيمتزج بمشاغل الحياة
رسالة
لا تحيا على الأرض
كمستأجر بيت
أو زائر ريف وسط
الخضرة
ولتحيا على الأرض
كما لو كان العالم بيت
أبيك
ثق في الحب وفي الأرض
وفي البحر
ولتمنح ثقتك قبل
الأشياء الأخرى للإنسان
امنح حبك للسحب
وللآلة والكتب
ولتمنح حبك قبل
الأشياء الأخرى للإنسان
ولتستشعر اكتئابة
الغصن الجاف
والكوكب الخامد
والحيوان المقعد
ولتستشعر أولاً اكتئابة
الإنسان
لتحمل لك الفرحة
كل طيبات الأرض
ليحمل لك الفرحة
الظل والضوء
لتحمل لك الفرحة
الفصول الأربعة
ولكن فليحمل لك
الإنسان
أول فرحة

ناظم حكمت"
من ديوان "أغنيات المنفى"
ترجمة محمد البخاري

سنوات ناظم حكمت المبكرة

بعد وفاة صديق ناظم حكمت (عابدين دينو ١٩١٣ ـ ١٩٩٣) Abidine Dino الرسام والسينمائي التركي الذي كان يقيم في المنفي بفرنسا، عثر أحد أفراد عائلته بين أوراقه على ذكريات مخطوطة غير تامة عن ناظم حكمت كتبها عابدين بالفرنسية ونشرتها مجلة يورب الفرنسية في أحد أعدادها الأخيرة تحت عنوان (سنوات ناظم حكمت المبكرة).

عابدين دينو
ترجمة: جودت جالى

أن التمزق الذي أثر عميقا في حياة الصغير ناظم يوجب علينا أن نبين بعض التفاصيل الدقيقة عن عائلتي أبيه وأمه. يتصل نسب ناظم من جهة والدته جليلة هانم بواحدة من العوائل العثمانية الكبيرة، وأشهر أسلافه فيها هو الكونت بروجينسكي وهو بولوني كافح من أجل أستقلال بلاده ضد القيصر الى جانب الجنرال بن، وحين هزم توجب عليه اللجوء في تركيا حيث أصبح باشا وأعتنق الأسلام، هذا الرجل ليس سوي المارشال محمد على باشا نفسه. يوجد سلف آخر لناظم من جهة الأم أصله فرنسي وينتسب الى عائلة (هيغو نوت)، هاجر الى ألمانيا أول الأمر ثم أختار أيضا أن يكون تركيا. أن زوجتي هذين الرجلين اللذين خاضا معارك يائسة في آسيا، وأوربا، وأفريقيا، كانتا نشطتين ومثقفتين.

الحكايات الرومانسية، والآمال المهجورة

أن أي روائي عظيم لم يكتب بالتركية رواية كرواية (الحرب والسلم)، يالها من خسارة! لم يكن العالم العثماني، وهو يقترب من نهايته، يمثل شيئا لأي كاتب. مع ذلك ففي عوائل كبار الموظفين والضباط، والحكايات الرومانسية، والآمال المهجورة، وقصور الى الى (الى الى منازل كبيرة ساحلية على البسفور) الشبيهة بسفن ذات سطوح عالية، على طول الشواطئ، على الجانب الأوربي، وعلى الجانب الآسيوي، ولدت شخصيات كثيرة كالنمل من كل نوع تبادلت فيما بينها الحب والبغض بجنون. هناك حيث العلاقات بين الرجال والنساء، وتعدد الزوجات، تمفصلت على نمط من الحياة أكثر تعقيدا من الحياة في الغرب خالقة ((مسرحة)) بتراكيب يصعب أدراكها. لم يحتفظ لنا النثر، وهو يعلن عن نفسه آنذاك متأخرا، بشيئ من هذا رغم أن هذه المنازل الفسيحة كانت تشكل مشاهد بديعة بعدة مسارح، وأكاد أقول مسارح بعدة مستويات، حيث تدور المآسي والمهازل التي لانهاية لها في الوقت نفسه بأخراج بانورامي وبممثلين صامتين كثيرين، طباخين، طباخات، خدم، بستانيين، حوذيين، وأهل غامضين. أن الشخصيات الرئيسية كانت محاطة بحشد متنوع من الممثلات الصامتات. لقد أكتسب الصبيان الصغار في هذا النمط المغلق ميلا مبكر النضج، وأكاد أقول ميلا مفرطا، نحو النساء. أن الأواصر مع العالم الخارجي كانت صعبة، ولكنها كانت موجودة من بيت لبيت ومن شاطئ لشاطئ. لقد خضع مجري الحياة من الأعلى ومن الأسفل لمزاج السلطة، لمزاج السلطان، لمتطلبات السياسة، لرغبات أثرياء السلاح، لمؤامرات الدولة التي تحمل بصمات أجنبية، لهذا كانت غالبا ماتتغير الأوضاع كليا من حال الى حال. لايوجد مايكفي من حسن الحظ تحت نير الطغيان الشرقي، وكما في الروايات الروسية الكلاسيكية يستشف القارئ وجود الفلاحين والشعوب المستغلة أستغلالا وحشيا في مكان ما، على مبعدة، في خلفية الرواية.

كان الجد الأكبر لناظم وهو ناظم باشا غالبا ماينفي بعيدا عن أسطنبول للشك بوجود علاقات له مع المعارضة الدستورية. نعم كان النفي بلقب حاكم ولكنه لم يكن ليخدع بهذا اللقب فقد كان السلطان عادة مايلجأ الى هذه الطريقة حين يضطر لسبب ما الى معالجة أمر شخص فيعاقبه بهذا الشكل. كان ناظم باشا مثقفا، مدني التفكير من المستوي الراقي، حاكما وعضوا في طائفة الدراويش الدوارين، ينظم الشعر أحيانا، وخبيرا في نظم شعر الأحاجي.

بورتريه لزوجة الابن

حين آن الأوان لتزويج الأبن حكمت ناظم بك فأن زوجة الباشا هي التي رتبت أمر الزواج جريا على التقاليد، يعني رسمت بورتريه-روبوت ((للفتاة التي يرغب فيها أبنها)) وشرعت ببحثها بالطرق الملائمة، أي بعمل تقص واسع، وحسب التعبير الخاص بهذا العمل، تغادر بيتها لتمارس عمل ((البصاصة)). كان حكمت ناظم بك صبيا جميلا، جيد الثقافة، ((من عائلة راقية))، صحيح أنه بلا ثروة ولكن المستقبل أمامه كدبلوماسي، أجمالا كان لابأس به، وعلاوة على ذلك فهو يتكلم الفرنسية، أذ كما تقول شخصية من شخصيات قصة (زواج) للكاتب غوغول بخصوص الزوجة ((وهل تعرف الفرنسية؟)) كانت معرفة الفرنسية ميزة مرموقة.

حسن... لقد وجدت زوجة الباشا الطير النادر، مخلوقة شابة جميلة يمكن السيطرة عليها، ((من عائلة عريقة))، تجيد العزف، وتكتب الشعر، والأهم من هذا كله، تتكلم الفرنسية.. كدت أنسي أن أخبركم بالجوهري.. كانت تمارس الرسم أيضا. كانت قبيلة جليلة آدين باشا ذات ميول غربية أكثر من قبيلة ناظم باشا لكن القبيلتين كانتا تشتركان في أنهما مكونتان من أناس ذوي شخصيات مميزة ويتصفون بصفات حميدة. أذن أعطيت يد جليلة أكراما لناظم باشا، وغادر الشابان رأسا الى (سالونيك) حيث كان لحكمت بك منصب ((مهنة)). في سالونيك ولد أبن حكمت ناظم، ناظم حكمت، جاء الى العالم عام ١٩٠٢، وقد سمي بأسم جده الحاكم ناظم باشا.

سالونيك.... أذا ماعدنا الى الماضي البعيد نجد أنه هنا في سالونيك أستولي على السلطة الكومونيون الثوريون الزيلوتيون الناطقون بأسم المضطهدين البيزنطيين، ولكن أستلام السلطة هذا لم يكن له أن يدوم في ظل العثمانيين. في هذه الحاضرة التي يسكنها فلاحون وحرفيون يونان وألبان وأرمن وتجار وعلماء يهود (أشكنازيون وسيفارديون) وبلقان عنيدون يديرهم موظفون كبار وضباط جاءوا من كل حدب وصوب، كانت هذه المدينة تغلي بالأفكار ومشبعة بالتبادل الثقافي. قبل الحرب العالمية الأولي جعل الشهيرون ((الكوميتاجيون)) البلقان، و((الشبيبة العثمانية)) ثم ((الشبيبة التركية)) وهم الأشتراكيون العثمانيون الأوائل من سالونيك الشارة الدوارة لفعلهم السياسي. كان الجميع هنا في مسقط رأس مصطفى كمال (كمال أتاتورك) يتآمرون على السلطان دون

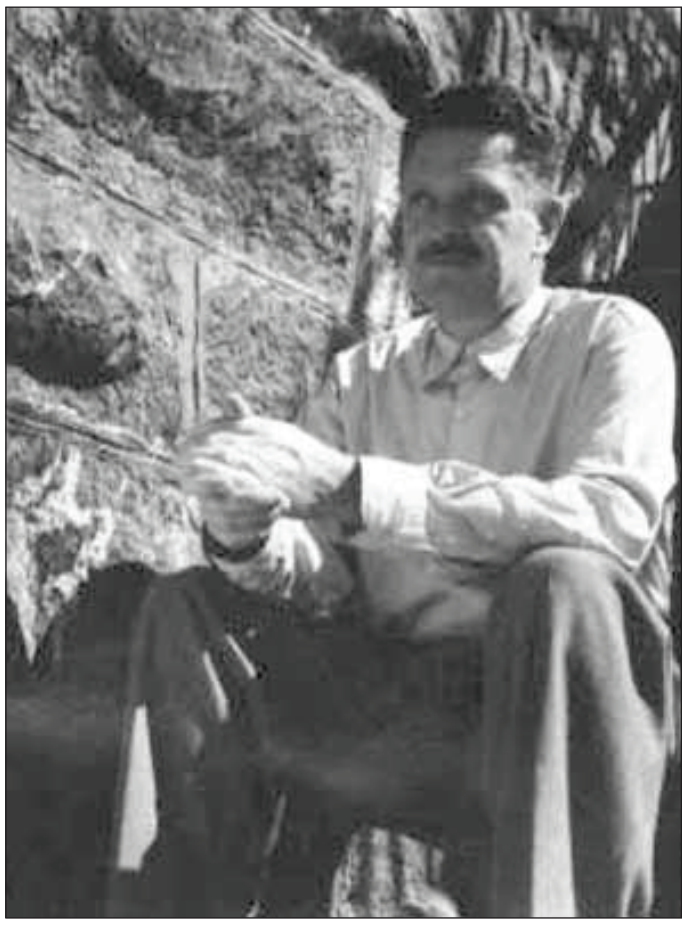

طفولة الشاعر

هوادة قبل ولادة ناظم حكمت ببضع سنوات.

حقا لقد شاءت الأقدار أن تكون سالونيك مسقط رأس شخصيتين تركتا أعمق الأثر على تركيا القرن العشرين... ناظم حكمت وكمال أتاتورك. مع ذلك فلم يتقاربا أبدا أذ أن تنافر خصالهما وأختلاف آيديولوجيتيهما حالا دون أجتماعهما. أبدي أتاتورك مرة لناظم رغبته في أن يسمع شيئا من شعره فكان جواب ناظم حكمت ((أنا لست أيستالينا المغرية...)) وأيستالينا هذه مغنية مشهورة آنذاك.

فلنعد الى طفولة الشاعر.. سرعان ماقدم حكمت بك طلبا بالأعفاء من منصبه في سالونيك فقد أتعبته البيروقراطية في سالونيك، وغادر مع عائلته الى حلب حيث كان والده ناظم باشا حاكما آنذاك. كان (كوناك) وهو قصر الحاكم عالما مكونا من خدم ونساء وأهل وضباط ووجهاء يجيدون كسب ود الباشا، وقد كان هذا المعتنق لفلسفة جلال الدين الرومي مؤسسا لطائفة الدراويش الدوارين، رجلا عظيم اللياقة في سلوكه، متسامحا، مبتعدا، منعزلا على الأقل في قرارة نفسه بالقدر الكافي عن الوجهاء. كان شغوفا بالشعر كحفيده. أما بالنسبة الى ولده حكمت ناظم بك فقد أقتحم ميدان زراعة الحور. كانت أشجار الحور أمل العوائل العثمانية الكريمة في الثراء لأنها تنمو بسرعة وقد زرع حكمت ناظم بك منها عدة آلاف بفضل بيع جواهر زوجته. تخيل مسبقا أنهما ثريان، وأنهما يوزعان خشب غابته على جميع بلدان البحر الأبيض المتوسط، ولكن غاب عن باله خطر الجراد الذي مرت منه غيمة على حلب أحالت نبتات الحور الى تراب، ومازاد الطين بلة أن ناظم باشا أعيد تعيينه سريعا في ديار بكر المقاطعة الشرقية البعيدة. توجب عليه المغادرة. قال ((ما أن أتينا حتى رحلنا.. فليبارك الله حلب!)). شرعت العائلة وأتباع الباشا بهذه الرحلة الطويلة، وقد كانت بمثابة حملة حقيقية مكونة من عربات تجرها أحصنة وعربة سفر فاخرة تجرها أربعة جياد وكانت توجد في القافلة أيضا دواب تحمل الأثقال. كانت ديار بكر منطقة يمتلك فيها البيكات الأقطاعيون الأكراد عشرات القري، هنالك حيث الجفاف الأناضولي أشد من جفاف الأواصر الأنسانية. لقد كان السلطان يمقت ناظم باشا حقا. تخلفت في ذاكرة شاعرنا بقايا صور حصوية وقاسية،لأن الجد كان كما يبدو يحب أصطحاب حفيده خلال جولاته الأعتيادية، كأنما حفرت في شبكية عين الطفل وجوه الفلاحين أو هكذا ظن ناظم على الأقل. حتى وأن كان والد ووالدة ناظم يشعران هناك بالملل حد الموت، شعرا به أولا في حلب ومن ثم في ديار بكر، فأن عدم تخليهما عن الباشا وتركه لمهماته الأدارية كان هذا على الأقل مبعث سرور لناظم، ومن جانب آخر فأن العادة المتبعة أن تتبع العائلة كلها الباشا الحاكم. ولكن مع من يمكن للزوجين

أن أي روائي عظيم لم يكتب بالتركية رواية كرواية (الحرب والسلم)، يالها من خسارة! لم يكن العالم العثماني، وهو يقترب من نهايته، يمثل شيئا لأي كاتب. مع ذلك ففي عوائل كبار الموظفين والضباط، والحكايات الرومانسية، والآمال المهجورة، وقصور الى الى (الى الى منازل كبيرة ساحلية على البسفور) الشبيهة بسفن ذات سطوح عالية، على طول الشواطئ، على الجانب الأوربي، وعلى الجانب الآسيوي

الشابين التحدث بالفرنسية؟

أبهة البسفور

عاشت جليلة هانم في ديار بكر، وهي التي أعتادت على أبهة البسفور في منزل مليء بالشخصيات الجذابة والمركبة، منطوية على نفسها مع زوج حطمت أعصابه البطالة. ظلت مشاريع المستقبل العظيمة غامضة. أن حكمت ناظم بك الذي كان يخشي من وضع نفسه في خدمة السلطان كان يفضل على ذلك ألف وسيلة ووسيلة لتكوين الثروة، ولكنه أذا بقي في هذه الزاوية الضائعة من العالم فلن يكون لديه شيئ. دفعت جليلة هانم زوجها الى أتخاذ قرار. لم تتحقق العودة الى أسطنبول مع الطفلين ناظم وسامية وقليل من المال دون مشاكل. عادا من جديد الى أسطنبول والى البحر والأقرباء والأصدقاء عودة فيها عزاء لهما. كان الطفلان يحظيان بالملاطفات والتدليل والحلوي ويغرقان في اللعب وتلتقط لهما الصور، كما جرت عادة عوائل كعائلتهما، عند مصور البلاط (صباح و جوايه). أقتحم حكمت ناظم بك بمساعدة أقرباء أكثر ثراء ميدان تجارة الألبان. أشترى أبقارا وأجر مرعى، وحدثت المعجزة فقد سارت الأمور سيرا حسنا لبعض الوقت.

أنغمر البيك في مغامرات مع جميلات مشرقيات، وهو يرتدي طربوشا أحمر وسترة طويلة على رأس تجارة مكنته من أرتياد محل حلويات (ليبون) ومطعم ومشروبات (تذوق كونكورديا) و(قصر بيرا) وفندق (توكاتليان)، وقام برحلات الى ((أوربا)). سرعان ماكسدت التجارة المزدهرة. لقد كان مدي أنتصار حكمت ناظم بك ومشروعه المستقل قصيرا.

أضطر الى العودة، وهو مثقل بالديون ومدمر، الى وظيفة تركها مبكرا في وزارة الخارجية. هذا هو السبب الذي دفعه الى أيجار بيت صغير في (كاديكوي) وهو حي جذاب آنذاك يسكنه بشكل أساس بيروقراطيون لايستطيعون أو لايريدون السكن في أحياء (نيشان تاش) الجميلة أو البسفور البطريركي المفعم بتيارات الهواء. كان مناخ (كاديكوي) أكثر أعتدالا من مناخ غيرها. يمكن الوصول أليها بثلاثين دقيقة من جسر (غالاتا) على مراكب بدوالب كالتي في بحيرة جنيف. أن ركوب المركب يسمح بالجلوس الى جوار السيدات الجميلات اللواتي يمكن أستشفاف جمالهن رغم الخمار الذي يغطي وجوههن والملابس التي تغطي أجسامهن. على الرصيف تزيح الريح الخمار لبضع لحظات عن عيونهن وشفاههن وتلصق عليهن ثيابهن فيبين جمال أجسادهن.

سرعان مايقع مسافرو (كاديكوي) تحت رحمة سحر زوجة أبن ناظم باشا فيقفون على طريقها متخذين (بوزات) ويقومون بحركات بقفازاتهم وبعصيهم ذات المقابض العاجية.. ولكن عبثا يحاولون فالجميلة الرشيقة تختفي غير مبالية في ((حجرة سيدات الدرجة الأولي))، كانت حجرة الدرجة الأولي للسيدات عبارة عن صالون صغير مربع بمرايا حيث تكشف المسافرات عن وجوههن ويدخن سجائر رفيعة بطرف مذهب ويشربن القهوة وهن يثرثرن مثل طيور في قفص. خلال نصف ساعة من الحديث يصرحن بأسلوب فني، وهن يتأملن ويتبادلن الأخبار، بمكائدهن على الخلفية الملكية للمدينة والزرقة البحرية. أن محادثتهن، وهي بنصف نبرة وبنصف درجة ألوان، وتجري بتحفظ وتهذيب وحرص بالغ، لم تكن فيما تتضمنه من تلميحات ألا في أعلى درجات الضراوة. أن تركية أسطنبول على لسان سيداتها كانت بالنسبة الى ناظم الصغير دراسة جامعية في اللغة بكلماتها وأنعطافات عباراتها وأسلوب كل واحدة منهن، وهو يجلس قرب أمه بعيونه الزرق المثبتة عليهن فيما كانت تنهمر عليه قبلات السيدات المسافرات الجميلات في الدرجة الأولي. هكذا كان قدره دائما أن يتلقي القبل، حتى في موسكو بعد موته سمحت الجنازة، التي تركت مفتوحة في مكان لايمت بصلة الى قارب كاديكوي، للمعجبين الموسكوفيين، من المشاهير أو من عامة الناس، بمعانقة ناظم حكمت لأول وآخر مرة في الرابع من حزيران من عام ١٩٦٣.

الاطلاع على قصائد امه

أطلع ناظم جيدا على قصائد أمه.. قصائد رافضة، شابة، عثمانية، وعلى الشعر الفرنسي، لامارتين، وهيغو، وفيرلين، وبودلير، وعلى هيغو التركي الذي كان يدعي (نامق كامل)، أول شاعر سياسي، ملتح، تفجر كاللعنة بوجه السلطان الذي عمد الى عقابه بالنفي، والسجن، وأعدمه في النهاية، كان يدافع عن "الوطن" و "الحرية"، ومن بعده الرافض العظيم الثاني الذي يدعي (توفيق فكرت)، ذلك الذي قاتل عن بصيرة، وحيدا، شرسا، وكانت أشعاره تبعث أحيانا على الدهشة ((وطني العالم كله)).

كان المصدر اللغوي الآخر هو قبيلة والدة ناظم، مصدر له خصوصياته، فكاهته الخاصة (فكاهة الشركسيين، طعم الكلمات الشعبية، القدرة على تقليد نبرة وحركات الحوذيين، والجذافين، وبائعي اللبن الرائب، والذرة، والفراولة، والخدم اليونانيين، والغسالات الأرمنيات، والمربيات الفرنسيات، والجيران، والباشوات الباذخين وهم يقومون بزيارة ما). كانت هذه القبيلة مستهزئة من النوع الخطر، كانت عبارة عن معجم ملاحظات وكلمات هزلية، من الجهتين (جهة الأم وجهة الأب) وقد أخذ ناظم الصغير منها البذرة، وكدس الكلمات والصيغ، علاوة على أن (المدرسة البحرية) قد أضافت الى معارف ناظم اللغوية كلام البحارة والصيادين مختلطا بكلام (الطلمبجية) وهم الأطفائيون المحليون المتطوعون، و Kulhanbey سيئي التربية ذوي اللغة الأصطلاحية المزوقة. عندما أخذ يعبر أراضي الأناضول فيما بعد، خصوصا في مختبرات أفعال اللغة ذات الهيمنة الفلاحية التي هي السجون التركية، أستطاع ناظم أن يثري معجمه الشخصي. لقد أمتلك ناظم من العمق نضائد اللغة التركية وفق المجاميع الأجتماعية والطبقات، وأستطاع بنماذج منها أن يرقي بالمصادر المتعددة الى مستوي شرفي أعلى. كماعرفت بعض مراحل طفولته، بفضل شقيقته سامية، من بين مراحل أخري تأريخا أبداعيا فريدا. كسر ناظم ذات يوم، وقد أستولي عليه ألهام مفاجئ، زجاجة واجهة البيت لكي يبني، كما قال، "طائرة زجاجية". أن الغرابة المرتبطة بالفكرة الجوية والشفافية تبدو لي محاولة أبداعية للغاية، أذا تحدثنا من الناحية الشعرية، فالمشروع كان أصله أدبيا دون شك لأن ناظما كان في تلك الفترة يكثر من قراءة جول فيرن. لكن نية ناظم صنع الطائرات لم تكن دليلا على حسن الطالع، فبعد "أختراع الطائرة الزجاجية" عاقبه أبوه عقابا ثار بعده الطفل وهرب من البيت. تتبعوه ووجدوه ومن ثم كان عليه أن يعود الى صوابه فالطفل في عمر السابعة لايمكنه الذهاب بعيدا. بعد ذلك بزمن طويل في سجن "برصة" أطلق على السجن الأنفرادي الذي حبس فيه أسم "الطائرة الزجاجية"، لكن هذه الطائرة لم تعد لعبة أطفال.

الازمة القلبية الاولي

أظن أن الطائرات كانت بالعكس تصيبه بالأعياء، فبعد رحلة بالطائرة من موسكو الى بكين أصيب بأزمته القلبية الأولى، وبعد رحلة العودة من بكين الى موسكو، بالطائرة أيضا، ساءت حالته وأصابه الشلل لعدة أشهر. ثم قام بآخر وأطول رحلة جوية (ياله من تهور!) الى تانجانيقا لحضور مؤتمر وهناك فقد مابقي لديه من قوة، وعلى العكس كانت رحلته الى هافانا قد أعادت اليه الأحساس بالشباب والحماس، وكان رواحه ومجيئه من والى أيطاليا يريحه أيضا، وأكثر من هذا كانت أقاماته في باريس - في حي سان ميشيل الذي كان يطلق عليه أسما غريبا هو "وطني" - تهدئ أعصابه. كانت العودة منها الى موسكو وحقائبه محشوة بالهدايا والقصائد الجديدة كوصوله اليها وحقائبه محشوة بالهدايا والقصائد الجديدة بمثابة أعياد. مأأن ينزل من السماء لم يكن عنده شيئ أجدر بالعجلة من قراءة قصيدته الأخيرة لصديق، وفي أي مكان، وفي أي ظرف... ولكن بالتركية. كان بالمقابل قد حدثني عن رحلته الى لبنان بحزن يدق عن الوصف حين رأي، والطائرة تحلق بخط مائل، الأرض التركية، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي سيلمح فيها أرض بلاده. تمعن ((الربان نيمو)) المنفي بحب ووجهه ملتصق بنافذة الطائرة، الجبال والزهور والسهول التي تمتد الى مالانهاية. بعيدة جدا، وقريبة جدا، وهو على أرتفاع ١٠٠٠٠ متر، أنبسطت تحته تركيا كأنها خرائط طفولته الجغرافية. كان يعرف أنه توجد هناك في الأسفل "المناظر البشرية"، رجال ونساء قصائده، في مكان ما، في قراهم المعزولة، يرفعون عيونهم ليروا طائرة في غاية الصغر تمر عابرة في الأعالى، ليست من زجاج، وليست من حجر، يجهلون حنين الشاعر الذي لاحد له وهو على سطح الطائرة المحلقة التي تخلف وراءها خطا أبيض مثلثا في سماء الأناضول...

بطولة الراحلين

فيما كان الشاعر الشاب يكبر بسرعة كان الخط المنحني الذي يبين أضمحلال الأمبراطورية يكمل مسقطه. لقد شكلت الحرب الدموية للدفاع عن الدردنيل عام ١٩١٥ نصرا لاينكر للجيش الذي كان قوامه الفلاحون ولمصطفى كمال ولكنها كانت مجزرة اذ قتل فيها ٤٠٠٠٠ تركي بضمنهم خال ناظم حكمت الحبيب الشاب محمد على. كتب ناظم في ذكراه أربع قصائد وطنية، قصائد رديئة جدا ولكنها مشبعة ببطولة الراحلين. كانت هذه المعركة آخر أنتصار للجيوش العثمانية قبل تدهور الأوضاع في عام ١٩١٩. أن القصائد التي كتبها ناظم حكمت بعد ذلك عن الهزائم أصبحت شيئا فشيئا أكثر كآبة وأكثر يأسا، وركيكة أيضا، أضاف ثيمات غامضة الرمزية وغير منظمة عن الحب والعاطفة، مع ذلك، يمكن لمن يفتش هنا وهناك بين أشعاره أن يقع على شعر لايفتقر الى جذب الأنتباه، وحتى الى بعض النجاح الذي يمكن أعتباره واعدا. تقع الرسالة الى ائسة التي أرسلها الى أمه عام ١٩١٨ بين قصائده الأولي لعامي ١٩١٤ و ١٩١٩. غير أن أنفصال أبويه حدث ولم يعد والده حكمت ناظم بك ووالدته جليلة هانم يعيشان معا. أضاف الى ألم الأنفصال العائلي ألما بالنسبة الى الشاب ناظم ورود أخبار الكوارث السياسية والعسكرية التي ظلت تتواتر الى أن أحتلت قوات الحلفاء أسطنبول. كانت العائلة، جريا على التقاليد، تتمني بحرارة أن يصبح ناظم عسكريا، وتحديدا، ضابط بحرية، ودون شك فأن طموحها يذهب الى حد أن يصبح أميرالا يتفوق مجده على مجد (باربا روس حير الدين) نفسه! وهكذا درس في المدرسة البحرية في (هيبلي على)- وهي جزر الأمراء في عرض البحر المقابل لأسطنبول- فيما كان يكثر من كتابة قصائد يصور فيها غالبا بطريقة أو بأخري البحر والموت والوطن. في هذه الفترة كانت جليلة هانم موضع تغزل كثير من قبل الشاعر الرمزي العظيم آنذاك يحيي كمال (١٨٨٤-١٩٥٨) الذي يمكننا القول عنه أنه كان أفضل شاعر في الجيل السابق لجيل ناظم حكمت الذي كان يشعر بالغيرة الشديدة على أمه، فهل كانت هذه الغيرة هي التي دفعته الى السعي للتفوق على منافسه في حب أمه شعريا؟ لقد تفوق عليه حقا ولكن فيما بعد.

ترددت جليلة هانم في الزواج مجددا فقد كانت أمرأة ذات شخصية مستقلة، وقد أرهقها خنازير مركب كاديكوي ومقصورة النساء للدرجة الأولى، فأختارت بدلا من ذلك أن تسافر لوحدها الى باريس لدراسة الرسم وهو ماقامت به تاركة أطفالها عند زوجها. أنقسمت مشاعر ناظم فهو يتفهم ضجر أبيه الذي أعيته شخصية جليلة هانم المتهورة، كما يتفهم أيضا نفور أمه من حياة بليدة مع زوج يشغل منصب (مدير صحافة أسطنبول)، لقد كان يتفهمهما ولكنه كان يعاني من تفهمه هذا، فهو يعيش حياة يتيم على نحو ما، غير أن ناظم حكمت كان يوجد لديه جيش من العمات وبنات الأعمام وصديقات العائلة وكلهن جميلات جمالا باهرا ويتنافسن على معاملته بلطف لينسينه غياب أمه، ومن ناحية أخرى، حصل على عزاء آخر بنشر أشعاره. كانت المجلات تقدر شعره، وحاز على شبه شهرة بقصائده الوطنية أحيانا، والملغزة أحيانا أخرى، والغرامية في أغلب الأحيان، غير أن أضطرابه ونفوره من أسطنبول كانا شديدين.

الشعور بالوحدة

كانت المدرسة البحرية بؤرة تحريض سياسي ولم يكن لأحد فيها حديث غير السياسة. كانت الشؤون السياسية شغل الجيش الشاغل منذ (سالونيك) وتأسيس (الشبيبة العثمانية) وربما قبل ذلك بزمن طويل. لم تنفع محاولات الأصلاح المتتالية للجيش والبحرية أبدا. كل هذه الأحداث والشعور بالوحدة زعزعت صحة ناظم، وزادت عليها مضاعفات رئوية فضلا عن أن الأنضباط العسكري لم يكن يناسب طبعه وكان يثور دائما على بلادة الأنظمة. لقد جاء مرضه في الوقت المناسب لأن الضابط الشاب المتدرب ((على سطح السفينة)) لأن قيده رقن أخيرا من كادر أصحاب الرتب العالية للأسطول مستقبلا. أميرال خاسر، وشاعر رابح.

لايهم مادام الأسطول لم يعد موجودا عمليا فقد أغرق وهزم ومابقي منه أصبح تحت رحمة المحتل. كانت المضايق، والبسفور، وسواحل البحر الأسود، وبحر مرمرة، والبحر الأبيض المتوسط كلها تحت رحمة مدافع الأساطيل الأجنبية.

لم يعد الضباط والمدراء يتقاضون مرتباتهم. أن كان الأذلال والهزيمة والأحتلال قد أثارت المشاعر الوطنية فأنها قد أظهرت الوعي الطبقي أيضا.

أن أسطورة بحارة المدرعة بوتمكين في البحر الأسود، وملحمة بحارة البلطيق في سانت بطرسبورغ،

«

فيما كان الشاعر الشاب يكبر بسرعة كان الخط المنحني الذي يبين أضمحلال الأمبراطورية يكمل مسقطه. لقد شكلت الحرب الدموية للدفاع عن الدردنيل عام ١٩١٥ نصرا لاينكر للجيش الذي كان قوامه الفلاحون ولمصطفي كمال ولكنها كانت مجزرة أذ قتل فيها ٤٠٠٠٠ تركي بضمنهم خال ناظم حكمت الحبيب الشاب محمد على. كتب ناظم في ذكراه أربع قصائد وطنية، قصائد رديئة جدا ولكنها مشبعة ببطولة الراحلين. كانت هذه المعركة آخر أنتصار للجيوش العثمانية قبل تدهور الأوضاع في عام ١٩١٩.

وأنتفاضة البحارة السبارتيكوسيين في ألمانيا، وأحداث تمرد الأسطول الفرنسي في البحر الأسود لم تمر دون أن تلاحظ في (هيبلي آدا). هذه الهيجانات في الخارج خلقت أنتفاضات معادية للعسكرتارية والأمبريالية. من المفيد أن نعرف أن أوائل الأشتراكيين العثمانيين كانوا قد طبعوا جريدة (الأنسانية) Insaniyet منذ عام ١٩١٠ وكانوا ناشطين بين العمال وبحارة ورش صناعة السفن، وكان ناظم ككثير غيره من الشباب يسعي الى فهم الزلزال الأجتماعي الذي زعزع العالم. كان الرد في تركيا حيث شهد الناس قمع المضطهدين لابد أن يتخذ شكل الكارثة، وهذه الكارثة تشمل بأمتدادها المدينة كلها. كانت أسطنبول في العشرينيات مدينة فسخها الجوع الذي ألم بأغلب الناس أزاء رفاهية قلة قليلة، والجيش المحتل، والدعارة، ووضاعة السياسيين.

لم يستطع الشاب المتلهف للمطلق، الذي هو ناظم، أن يخضع لهذا الواقع. ثم مافائدة أن يكون بحارا على سطح أسطول شبح، أو بيروقراطيا، أو شاعرا في مدينة ضائعة؟ ياله من أذلال لايحتمل! أن فرصة تركيا الأخيرة ستكون على سطح الأرض وليس على سطح البحر. هذا هو ماأقتنع به ناظم. تكونت كيفما أتفق شبكات مقاومة، كانت المجاميع التي تقوم بأعمال الأستنزاف وسرقة السلاح والدعاية مكونة من الشباب غالبا. كان أنضباط قوات الأحتلال، الجنود الأن□ليز والأيطاليين والفرنسيين وقواتهم الأستعمارية، مدعاة لغيرة هذه المدينة (هيبلي آدا) المليئة بالروس البيض واللاجئين البلقان، والنساء المحجبات، ومنارات الجوامع، والمواخير التي يعاقر فيها الشاربون العرق بشراهة ويدخنون الحشيش بأستمرار، المدينة التي تغني فيها الأغاني الحزينة بكل اللغات. في تلك الفترة بالضبط كان يوجد هناك (بريفير) و (مارسيل دوهاميل) وكان من الممكن أن يصادفا صبيا فضوليا يعتمر طربوشا عتيقا رخوا مثقبا، بلا لحية ولاشاربين، يسعي الى العراك وهو يعنف الجنود الأجانب بفرنسية متقنة. لم يكن هذا الصبي المتهور سوي ناظم حكمت.

الغندور المتأنق

لم يعد يلاحظ الناظر أليه شيئا من مظهر الغندور المتأنق طالب المدرسة البحرية، لقد أستحالت ملابسه وحذاءه الى أسمال، كانت مشية البحار وخطواته السريعة التي أعتاد أن يسير بها على جانب السفينة، وأشاراته، ولعناته يمكن أن تعرضه الى الأشتباه في أنه جندي أسكتلندي فار سكران أو مالايعلمه ألا الله. كان دائما يسير على رأس مجموعة من الصبية المليئين تصميما، ينتزعون علما أن□ليزيا من هنا أو بيانا لقيادة الحلفاء من هناك، ويسعون لسرقة السلاح. أقاموا علاقات تنظيمية وأخذوا يحوكون المؤامرات، وكانوا يتمتعون بأطلاع كاف ويغطي على تحركاتهم الحشد الخليط من الناس لحسن الحظ. كان ناظم حكمت يرغب في الهرب من هذه المدينة التي تتفسخ كسمكة ميتة على الساحل. يجب الفرار من هذه المدينة. أصبحت الأناضول بالنسبة الى ناظم موضع الأمل منذ عام ١٩١٩.

كان مصطفي كمال ورفيقه الأقرب فؤاد باشا (أحد أخوال ناظم) قد غادرا الى الأناضول لتنظيم الثورة الفلاحية.

في هذه الأثناء كان الدور الذي لايستهان به لحركة المقاومة في أسطنبول هو سرقة السلاح ونقله عن طريق البحر الى الداخل، وقد نفذت الشبكات بنجاح ليس نقل السلاح فقط بل والكوادر العسكرية والمدنية الشابة أيضا. أختفي ناظم من بيته شتاء عام ١٩٢٠،

وجد أبوه على منضدته قصيدة يبدو أنها تعني أن ناظما أعد لمغادرة بلا رجعة، كان يتحدث فيها عن قضية الشبيبة، والأناضول، والصراع الدامي. أخيرا وصلت بطاقة بريدية أحالت الظنون يقينا ((والدي العزيز.... نحن في أنبولو منذ يومين، صحتي جيدة جدا، سنغادر الى أنقرة خلال يومين أو ثلاثة أيام ربما !)) تبع ذلك توجيه التحيات الى الجميع ثم ((مرت رحلتنا في البحر الأسود على خير مايرام. هنا يمكن للمرء أن يتصور أن الفصل صيف، الطبيعة جميلة جدا)). سأقول لكم كيف جرت الأمور. تحدد يوم المغادرة في الأول من كانون الثاني. بعد وفاة صديق ناظم حكمت (عابدين دينو ١٩١٣ ـ ١٩٩٣) Abidine Dino الرسام والسينمائي التركي الذي كان يقيم في المنفي بفرنسا، عثر أحد أفراد عائلته بين أوراقه على ذكريات مخطوطة غير تامة عن ناظم حكمت كتبها عابدين بالفرنسية ونشرتها مجلة يورب الفرنسية في أحد أعدادها الأخيرة تحت عنوان (سنوات ناظم حكمت المبكرة). كانت تسحره قبلات جميلات الغرفة المخصصة لسيدات الدرجة الأولي، عطورهن، أيديهن الناعمة، عيونهن الكحيلة.. بعد نصف ساعة تنقضي لحظة السحر هذه ويعود من جديد طفلا مرعبا، كثير النسيان للسيدات، تارة يكون رقيقا، وتارة غضوبا، وتارة حالما، تاركا كل مامر فيه يشف كليا. في الواقع كانت تمر فيه وحوله أشياء تجعله يوميء، ويركض، وينشد، ويندفع ثم يتوقف فجأة مأخوذا بموجة كآبة تغرقه لساعات طوال في بطون الكتب.. كان غالبا مايدمدم لوحده بعبارات. لقد أخذ من جهة الأب والأم معا حب الكلمات.. الكلمات التي كان يسمعها قرب جده، ناظم باشا، الحاكم السابق المتقاعد العائد الى أسطنبول، وكذلك عبارات أصدقاء جده المخلصين، المولويين، أشخاص طوال القامة كأشجار السرو، يستعملون غالبا كلمات عربية–فارسية فخمة، أيقاعية، مزوقة، يتلو الباشا وأصدقاؤه أبياتا رائعة بتلك اللغة المركبة التي هي اللغة العثمانية. كان ناظم حكمت قد عرف قربهم نشوة أيقاع العروض التقليدي Aruz ، الثيمة الدورانية المقطعة أبدا وهي تعود الى نقطة البداية دائما، والزمن المغلق، والحيز المسيج، وقد نظم على هذا المنوال قصيدة (مولانا Mevlana) التي مطلعها (فيما كانت جبهتي مطوقة بتاج العدم). كان ناظم يحمل في جيبه أوراق هوية مزورة حولته الى تاجر بيض! يالها من فكرة! وصل الى الموعد متأبطا صرة ثياب. في الأول من كانون الثاني عام ١٩٢١ صعد ناظم وصديقه (ولع نور الدين) الى ظهر (العالم الجديد) وهو قارب بخاري متواضع لايوافق أسمه مظهره. سرعان مأأبحر (العالم الجديد) كما في الرسوم الساذجة التي تزين جدران مقاهي ميناء □الاتا وهو ينفث دخانا أسود كثيفا بوجه برج لياندر تتبعه عن كثب دلافين تثير الأمواج.

كان مصطفي كمال، قبل ناظم حكمت، قد أستقل قاربا مشابها أسمه (شمشون) بأتجاه البحر الأسود بحجة مهمة تفتيشية. علم الكولونيل (بينيت) قائد المخابرات البريطانية في أسطنبول بتحضيرات مريبة لكن رؤساءه لم يحملوا معلوماته هذه على محمل الجد (هذا الكولونيل الهاوي للغنوصية والصديق الكبير لغورجييف تحدث بمرارة عن هذا الموقف في مذكراته) فقد غادر مصطفي كمال للألتحاق بالفلاحين الذين حملوا السلاح عفويا مكونين في مناطق معينة بؤرا لحرب العصابات. كان بأمكان ناظم، وهو يستند بمرفقيه الى درابزين القارب، أن يتصور مشاعر النفور التي أعتمات في نفس مصطفي كمال وهو يغادر المدينة. السلطان محاط بمتملقين ضعفاء، والمدينة في أيدي سياسيين متواطئين، ومنتفعين من الحرب، هذا العالم كله محكوم عليه باللعنة حكما لاناقض له، لايفصح عن نفسه، يباع ويشتري. لابد من التخلص منه بأي ثمن... لابد! لم يكن يوجد، سواء على الجانب الأوربي أو على الجانب الآسيوي، غير الأوهام، والأخفاق، والفضائح، والخيانات التي تتوالى أمام ناظري الشاعر وهو مستند بمرفقيه الى الدرابزين. أنه يعلم بما هو نقيض بهرجة القصور التي ضربتها الأحداث، ويعلم بما داخل البيوت الصغيرة المتداعية حيث تتجسد المقاومة، وحيث تشكل تنظيماتها، وتخبيء سلاحها وغضبها. لكي نحلل الأمور بطريقة ناظم قرية بعد قرية، ومدينة بعد مدينة، تأريخ كل مسكن وحكاية ساكنيه، فأن البسفور يتكشف لنا عن قصة تأريخية مصورة واحدة نقلب صفحاتها صفحة بعد صفحة.

بحر بلون الحبر

كان في هذه الأثناء يستحضر بأسي وجوه الفتيان الأليفة، وجوه الأهل، الفتيات والأصدقاء الذين لايعلمون برحيله السري. أن رحيله سيخلق مآسي، فليكن! لابد من الرحيل. بدأ اللسان الساحلي يكبر مع أقتراب القارب، ويتقدم شيئا فشيئا للقاء (العالم الجديد). بحر بلون الحبر يبتلع دوامات الثلج التي تأتي بها (البوراز) ريح الشرق، ريح أوديسا الثلجية التي أصبحت تحت سيطرة البلاشفة، ترمي هذه الريح بنفسها في المضيق الذي يوصل الى أسطنبول، وهي تهز القارب. أتخذ ناظم الطريق نفسه بعد ٢٩ عاما على زورق سريع ولكن الفصل كان صيفيا رائقا. كان الصديقان معا أيضا كما كانا على ظهر (العالم الجديد)، وكان ناظم يري من جديد، لمرة أخيرة، المناظر الأليفة تمر من أمام عينيه. في هذه المرة رأي أبنية الأسمنت تحل محل أبنية الخشب، أخلي معمار المساكن العثمانية القديمة مكانه للأبنية باهتة الذوق، لقصور الأثرياء الجدد الذين ظهروا خلال الحرب العالمية الثانية. لكن المنازل الفقيرة كانت هذه المرة أكثر عددا، وأكثر تداعيا من أي وقت مضي. وصلت البرجوازية الى السلطة مع (الحزب الديمقراطي). لقد أثار حنقها، وهي تنعم بالسلطة، أن تضطر الى أطلاق سراح الشاهد العظيم المزعج الذي هو ناظم حكمت. أعدت له أنتقاما متحججة بعدم أدائه ((الخدمة العسكرية)) وهو في الخمسين من العمر! وجد Angina pectoris صعوبة في التلاؤم مع تمارين الأفواج الخاصة التي يخصون بها ذوي العقول العنيدة. كان يمكن التخلص منه، حسب رأي البوليس السري آنذاك، بطرق أخري. لقد تخطي ناظم بجدارة أول فخ أعد له ولكن لم يعد يوجد متسع من الوقت ولابد من التحرك. كان ناظم يعرف أن الحزب الديمقراطي يعد للقمع وسرعان مايقوم من جديد بأعتقال الى سارين متذرعا بشتي الحجج. في تلك الظروف فكر ناظم أن الوقت حان لخلق معارضة في خارج البلاد، رأي أنه قد حان الوقت لهجرة يمكن أن توصل صوت الأشتراكيين الأتراك وتحرك الرأي العام العالمي. في ذلك الوقت بالذات وجد نفسه تحت مراقبة دائمة من قبل أكثر عناصر دوائر البوليس حنكة مدنيين وعسكريين. لكن هذه المصاعب مهما بلغت فأنها ليست بذات بال مقارنة بمشكلته الشخصية، لقد كان يحب زوجته الشابة وأم ولده محمد المولود حديثا حبا جما، ولاجدال في أن أصطحابه لهما معه في هربه سيكون ضربا من الجنون. هذا وهو لم يكد يخرج من السجن ويعتاد على السعادة والحرية (النسبية) فهل كتب عليه أن يبتعد مكرها عن كل هذه الحياة، أن يقطع مرة أخري بضربة واحدة حبل مرساه ويذهب الى عرض البحر؟

أبحر ناظم ورفيقه وهما يتناوبان على القيادة، وينزلقان على الأمواج الصغيرة القاسية، ويحتسيان القهوة، بأتجاه فارنا. حدثت الأمور في هذه المرة الثانية بشكل مختلف، ولكن لايهم، لقد وجد ناظم البحر الأسود المتواطئ مع هروبهما، وساحل الوطن، أما المخاطرة فقد تقبل نتائجها. بعد كل شيئ ألم يكتب قصيدة يقول فيها ((أريد العودة الى البحر/أريد أن أموت في البحر)).

نزل ناظم ورفيقه (ولع نور الدين) من المركب في (أنيبولو) مع مهاجرين سريين آخرين، شاعرين متواضعي الموهبة، ومغامر مهووس بالجنس، وبضعة

أشخاص لاأهمية لهم. هناك تعقدت الأمور فقد كانت مخابرات المقاومة السرية المسماة ((المنظمة الخاصة)) قد أقامت سيطرة ثانية في هذه المدينة الصغيرة لكي تعزل ((الحبة السليمة)) من ((الحبة المتعفنة))، يعني تقوم بتحقيقات ومطابقة معلومات ومراسلة مع مصادرها في أنقرة يمكن بها تجنب أندساس عملاء العدو السريين (قدر الأمكان). طال الأنتظار غير أن الشاعرين والمهووس جنسيا ردوا من حيث أتوا الى أسطنبول.

جذبت ناظم وولع حالا جماعة من بين الجماعات المتنافسة هي جماعة السبارتكوسيين. لم تكن للقوميين والطورانيين أهمية كبيرة هناك أما السبارتكوسيون فلهم قصة أخري. كانوا بحكم دراستهم في ألمانيا يتحدثون عن روزا لوكسمبورغ والصراع الطبقي وعن أشياء كثيرة أخري بدت في غاية التعقيد. كان الناطق الرسمي بأسمهم وهو شخص غريب الأطوار يعتبر أن (أخوية Ahi الأناضولية) تمثل الحزب الشيوعي. وجد ناظم، رغم جذوره الفكرية الوطنية، أن السبارتكوسيين مثيرون للأهتمام ويمكنه أن يناقشهم حول أفكار شخص معجب به هو (أوغست بلانكي).

طربوش من صوف الحملان

كان ناظم يتجمد بردا أثناء أنتظاره وقد أشتري طربوشا Kalbak ضخما طويل الصوف تخرج منه خصلات شعره الأشقر المحبب، وكان يرتدي أيضا بناطيل قديمة صوفية سميكة للفروسية أشتراها بقروش قليلة وقد أفادته فيما بعد فائدة عظيمة خلال المسيرة الطويلة التي قام بها عبر الثلوج الأناضولية. أما ولع، وهو مثقف مرح يرتدي عوينات سميكة، فقد كان يعتمر طربوشا (سيميلي أستراخان) من صوف الحملان يزيد وجهه المعلم بضربة سكين طولا. كان ولع يكتب هو أيضا قصائد، قصائده جيدة أيضا ولكنه لم يثابر في طريق الشعر ولا في طريق الثورة. كان أيمانه الوحيد هو الصداقة. لقد ظل الصديق المخلص لناظم الذي غفر له تركه الشعر وتخليه عن الثورة.

دبر الصديقان أمرهما بالفلوس القليلة التي كانت تكفيهما بضعة أيام لأحتساء الشاي الأسود (دم الأرنب) وأكل الخبز الى ابس الى أن وصل من أنقرة أخيرا (جواز المرور) ومظروف فيه قليل من المال، وكانت تلك هي المغادرة الكبري في حياة ناظم حكمت مثلما هي الأنعطافة الحقيقية في الأدب التركي. قبل أن يسير في طريق أنقرة أرسل ناظم رسالة ((الى البيت)) والرسالة موجودة عندي وهذه بضعة سطور منها ((والدي العزيز.. سنغادر غدا باكرا (أنيبيولو). لقد أعيد أثنان من أصدقائي من (أنيبيولو). بقيت أنا وولع نور الدين. صحتي ووضعي في أحسن حال. أن الناس هنا في غاية اللطف معنا. سد الثلج الطرق منذ بضعة أيام وهذا من حسن حظنا لأننا سنستطيع سلوك الطريق دون خشية من الوقوع في مشاكل)) يتبع هذا أحاديث طمأنة وأعتذارات وتحيات الى الجميع، ثم هذه العبارة ((والدي العزيز، أتوسل أليك، أرسل لي عنوان أمي)) كانت أم ناظم قد عادت من باريس، ولكنها تعيش في عالم منفصل.

أن سقوط الثلج قد جعل الطرق في الواقع خطرة وغير سالكة. أفلح الصديقان في هذه الأثناء أقناع بغال وبعض المتهورين أن يجربوا المغامرة مثلهما. حمل البغل أمتعة المسافرين فيما سار هؤلاء على شكل طابور هندي. أقدامهم محمية، على طريقة الفلاحين بطبقات متناوبة من الصوف واللباد. كان ناظم يغني مرتجلا شعرا وهو يتوغل في الثلج. تسلقت القافلة الصغيرة ببطء كبقعة داكنة التلال التي تشرف على المدينة. أختفي الميناء عن أنظارهم في الأسفل فيما كان على المسافرين أن يدوروا نحو أعالى السهل الأناضولي الأماكن الأكثر صعوبة في التسلق. ران على القافلة الصمت. لكن ناظما كان صامدا. تقدم المسافرون كنقاط ضئيلة وعنيدة فوق المنحدرات البيضاء اللامتناهية شيئا فشيئا. أستمرت المرحلة الأولي ثماني ساعات، عبروا غابات تنوب شاسعة تنوء بالثلج وكانوا، وهم يمرون بمحاذاة قري ذات منازل ماقبل التأريخ، يصادفون أحيانا فلاحين بملابس سميكة متهرئة.

وصلوا أخيرا منهكين الى خان حقير أووا أليه في الليلة الأولي وقد حصلوا من المبيت فيه على هدية لايمكن تجنبها، حشد من القمل يرافقهم الى حمام (كاستمانو). أستطاعوا كيفما أتفق أن يتخلصوا منه بعد يومين ولكن كان لابد من الأستمرار في المسير الذي أصبح مؤلما أكثر فأكثر ليصلوا هذه المرحلة. أن جاذبية (كاستمانو) الوحيدة كانت هي بيت بغاء مسكون بالأشباح، بعد ذلك، في اليوم التالى حضر المسافران مشهد محاكمة أقامها أنصار الأستقلال حكمت على عجل بالشنق الفوري لأحد أعوان السلطة. تابعوا طريقهم في اليوم الثالث سائرين على النياسم البيضاء (آثار سير على الأقدام غالبا في المناطق الوعرة عادة- المترجم) حتى مدينة (سانكيري). غطت الثلوج على طول الطريق تقريبا القري التي كانت تعلن عن وجودها أحيانا بالدخان الذي يرتفع من مستوي الأرض الى السماء لونا رماديا قاتما.

كانت تتوافد مجاميع صغيرة الى أنقرة مارة بسانكيري حيث تصل أصداء الجبهة نتفا من خلال اللقاءات في المقاهي. لم يكن شيئا غريبا أن تري في تلك الكتلة التعيسة التي هي سانكيري شيئا يعمل غير السجن وخان مهدم وبضعة دكاكين. أن جغرافية القدر التي لاتكف عن الدوران قادت ناظم فيما بعد الى سانكيري، وكان هذه المرة سجينا شيوعيا محكوما بالسجن ٢٨ عاما. لم يكن ناظم عند مروره الأول بسانكيري قد أصبح شيوعيا بعد، ألا أن بذرة ما كانت قد نبتت في داخله، أمل بتغيير جذري، كان كل شيئ برأيه يحتاج الى أعادة خلق... الشعر، والعالم، وكان هو مقتنعا بذلك. مما يبعث على الدهشة أن أشعاره تغيرت منذ أن وطأت قدمه أرض الأناضول، تحولت الى أشعار محكمة، عنيفة.

تمرين شعري

كان التمرين الأول الذي قرر أن يجريه ناظم وولع هو كتابة قصائد من وحي الطبيعة، كلمات وأسالىب تعلمها ناظم بوحي من أمه تقوم غالبا على الحافز المباشر. تطورت المرحلة الوصفية سريعا خلال المرحلة الأناضولية (ماقبل المستقبلية)، وأعلنت حرية التعبير وصيغة اللغة المحكية الأصطلاحية في عبارات مثل ((نحن نبيع أم التعب)) (هذه ترجمتنا الحرفية لعبارة Nous vendrons la mre de la fatigue ويقول هامش المجلة أنه يمكن ترجمتها بمقابل هو " نتبرز على التعب" ولدينا باللهجة العراقية معان بألفاظ مقاربة تعني الأستخفاف بالتعب والمصاعب ويبدو أن عابدين نقل المثل التركي المحلي حرفيا الى اللغة الفرنسية وطبعا لابد من أن لصيغة المثل جذر في الحياة الشعبية لايمكن ألا لأهل البلد معرفته- المترجم) أن بيع الأم Vendre la mre هو تجديف مألوف في أحياء أسطنبول الشعبية، رطانة ألحقها ناظم في قصيدة قصيرة كتبت في الطريق، في مكان ما بين كاستمانو وبين سانكيري.

لقد صمد ناظم صمودا رائعا في عبوره الأناضول قياسا الى وضعه كصبي ضعيف الرئتين. كان هذا (الهيبي) قبل أن يكون للهبيين وجود والمرتدي الكالباك يجعل المحيطين به يشعرون بوجوده بينهم، كان لايعرف التعب، يلقي الخطابات، ويطالب، ويضحك مقهقها وهو يميل الى الخلف. وجد في سانكيري، وقد أنهكته الرحلة، مع أنه أتمها راكبا عربة شبيهة بعربة ترويكا (عربة روسية تجرها ثلاثة أحصنة) تسمي Yayali، مجموعة من السبارتكوسيين وجماعة آهي Ahi وهم أتباع الدكتور صادق آهي ((الملهم)) والعالم المطلع الذي عاود ألقاء دروسه الماركسية المتجولة فيما كان ناظم يستعجل الوصول الى أنقرة. في ذلك المكان توصل الى قرار الأشتراك في الحرب على الأمبريالية، هناك أراد أن يحقق ذاته دون أن يضيع دقيقة.

رفض البغال المضي الى أبعد، وأتفق السبارتكوسيون على العودة من حيث أتوا رغم نصائح ناظم لهم ونداءاته بالثبات وقد كان يرتعش من اللهفة الى المضي قدما. قطعت الجماعة الجديدة باقي الطريق، دون أن تستطيع أيجار مركبة أخري، سيرا على الأقدام بخطي سريعة نحو أنقرة. ظهرت المدينة أخيرا محاطة بالتلال وبرز قاسيا عاليا هيكل القلعة القديمة على صخرة عظيمة. تمتد المدينة أسفل منها في حفرة ثم تنحو الى الصعود متناثرة بميلان خفيف نحو بساتين سانكايا حيث يقيم مصطفي كمال في مكان ما يحرسه رجال لازيون من البحر الأسود يرتدون ملابس وعمائم سود ومدججون بالسلاح. كان لمنازل أنقرة القديمة مظهرا شكسبيريا بعوارضها الخارجية المتقاطعة على طراز (تودور) وحيطانها المغطاة بالجبس الملون بالأبيض والوردي. كانت هذه المدينة تحتفظ بآثار العمارة الرومانية، كانت هي مقر طريقة الحاج بيرم الصوفية وهي طائفة من القرن الخامس عشر أسست جمعية الخيرات التي كانت تزرع جميع الأراضي بشكل جماعي، وهناك أيضا حول القلعة كان يستقر أنصار آهي التي كان لها دور حاسم خلال صعود السلالة التركية العثمانية.

بأختصار.. أن المكان الذي أختاره مصطفي كمال ليقود المعارك منه ويعيد تنظيم البلاد لم يكن ألا ضيعة كبيرة ولكنها ضيعة كانت تجري فيها أمور ضد السلطة العثمانية منذ قديم الزمان. كدت أنسي أن أقول أن تيمورلنك هزم ثم سجن (بايزيد) في قفص وضعه على عربة كبيرة، وهناك أيضا سوت قوات القسطنطينية مدعومة من قبل أنجلترا حسابها مع مصطفي كمال و ((المسألة الشرقية)). لقد أقتربت فعلا من أنقرة ولم تكن المدينة محمية ولكنها لم تحتلها. كان ((المؤتمر الوطني الواسع)) المكون من وجهاء وقادة أحرار وبضعة سياسيين وعسكريين قدموا من أسطنبول يستولي عليه الجنون أحيانا خوفا من الخطر الداهم. طمأنهم مصطفي كامل واحدا واحدا، بصوته الحجري، المعتاد على القيادة، وهو يرتدي الملابس المدنية، مطلقا الوعود والوعيد، وهو ينظر بعينيه الصافيتين، الحولاوين قليلا، بحيث لأأحد يعرف على وجه التحديد الى أين ينظر. في الحقيقة أنه لم يكن ينظر الى شخص بعينيهبل كان يراهم جميعا، بالجملة، لأنه كان يعرف عالمه كأنه عند أطراف أصابعه، يعرف الحجج، والمتكلمين بها، والأفندية، والبهوات، والباشوات، يوبخهم كما يوبخ المعلم التلاميذ في صف كثير الشغب.

في الحقيقة أن مكان أجتماع ((المؤتمر الوطني الواسع)) لم يكن ألا مسرحا محليا وكان الوزراء يستقرون كيفما أتفق لهم، في مخزن للغلال، أو في فندق، فالضرورة أحكام. في وسط هذا الهيجان كان مصطفي كامل، رزينا، سارحا تقريبا، أكثر أناقة من لورد أنجليزي، يقوم بفرز برقياته، ويرتب أستراتيجيته، وينسق سياسته، ويعد خطاباته، يكون أحيانا أمام خرائط قيادة الأركان، وأحيانا أمام موائد خمر الى اكي مع ضباطه ومدعويه المدنيين، يناقش دائما. تكفيه بضع ساعات من الراحة لكي يخرج اليهم مجددا، شيطانيا، وجذابا، يرتدي (الباشا) غطاء رأس، ومعاطف فرو، ودثارا للكتفين، والسترة الردنغوت الطويلة مفتوحة الذيل، أو سترة الرياضة، كأنه يتبع حكمة بروميل (الأناقة الحقيقية تسخر من الأناقة).

ملاحظة المجلة: (هنا ينقطع النص على هذه الرؤية الساخرة لأتاتورك ولكنه قدم بيانا جيدا، بعيدا عن كل تنطع، عن حالة تركيا آنذاك).

ناظم حكمت..
ضريح في المنفى ومقتنيات معروضة للبيع

عادل العامل

تم العثور على المقتنيات التي لا تُقدر بثمن للشاعر التركي الشهير ناظم حكمت في إقليم الأورال في روسيا. و تتهيّأ غالينا كوليسنيكوفا، طبيبة حكمت السابقة و وكيلة جهاز الاستخبارات السوفييتية KGB السابقة كما يُزعم، لبيع مقتنيات الشاعر مقابل مليون دولار. و يريد ميليه غونيس، صديق زوجة الشاعر الأخيرة، من المسؤولين الأتراك حماية هذه المواد.

إذ تحتفظ امرأة روسية متقدمة في السن، يُزعم أنها كانت وكيلة للـ KGB بمواد مهمة يمكن أن تلقي ضوءاً جديداً على حياة واحد من أعظم شعراء تركيا على الإطلاق، وفقا لصديق زوجة الشاعر.فقد ذكر أن غالينا غريغورييفنا كوليسنيكوفا، البالغة من العمر الآن ٩٤ عاماً و التي تعيش في إقليم الأورال الروسي، لديها كما يُقال أعمال غير منشورة و وثائق تعود للشاعر التركي ناظم حكمت، وفقا لغونيس صديق فيرا توليباكوفا، زوجة الشاعر الآنفة الذكر، الذي أخبر صحيفة حرّيت ديلي نيوز أن كوليسنيكوفا كانت تريد أن تبيع المواد لقاء مليون دولار و أن المواد كانت " مكدّسة بصناديق في الخارج بساحتها ". و كانت أعمال حكمت، الشاعر الماركسي الذي توفي في ٢ حزيران ١٩٦٣، في منفاه بموسكو، قد تُرجمت إلى أكثر من ٥٠ لغة، مما جعله واحداً من أشهر الشعراء الأتراك في العالم.

و قد أعلم هذا الصديق وزير الثقافة التركي أرتغرول غوناي بالقضية، لكنهم قالوا له إن الوزير غير قادر على تخصيص أموال لشراء المواد. و مع هذا، فإن الوزارة مستعدة لإقامة اتصالات رسمية مع السلطات الروسية بشأن هذا الموضوع، حسبما قال غونيس.

و يهدف غونيس نفسه إلى استعادة ممتلكات ناظم و إنشاء " معهد و متحف ناظم حكمت " في تركيا، حيث يرغب في وضع المقتنيات الشخصية للشاعر الراحل معروضة للجمهور. و كان لوزارة الثقافة التركية موقف إيجابي من المشروع. كما قال لصحيفة الديلي نيوز مخاطباً السلطات الرسمية بأن تركيا ينبغي " أن تهتم بما خلّفه ناظم حكمت " بدلاً من استعادة رفاته من ضريحه في موسكو. و قال مستذكراً إن الشاعر قضى معظم حياته في مرحلة البلوغ إما بالسجن أو في المنفى إن "ناظم" جرحٌ في ضمير هذا البلد ، فدعونا في الأقل نسدد له ماله علينا من دين ".

و وفقاً لغونيس، فإن كوليسنيكوفا و حكمت عاشا معاً لمدة سبع سنين قبل أن تدخل توليباكوفا حياة الشاعر. و قال موضحاً : لا تفكروا بأنها كانت علاقة حب. لقد حدث ذلك في أوائل الخمسينيات حين التقيا في مصحة فارفيخا. و كانت كوليسنيكوفا طبيبته، لكن البعض يقولون إنها كانت عميلة للـ KGB. و كما أخبرتني فيرا لاحقاً فإنها قامت بإساءات كثيرة لناظم ".

و قد ذكر غونيس أيضاً أن كوليسنيكوفا باعت سيارة الشاعر لقاء ٦٠٠ دولار قبل سنتين. و هي، كما قال " يمكن أن تموت في أية لحظة و يمكن أن تبيع كل مقتنياته. و علينا الاهتمام بتراث ناظم ". و قال: إن كوليسنيكوفا كانت قد دمرت الكثير من وثائق المقتنيات الموقعة العائدة للشاعر. " وقد أرَتني الصناديق التي تُحفظ فيها تلك الممتلكات و عليها رُقَع بالأسعار. و هذا ما جعلني أشعر بالأسى. فقد ترك قسم كبير من الوثائق لتلاقي مصيرها في الحديقة. و قد أخذتُ أنا قطعتين منها، إحداهما وثائق فارغة عليها توقيعه، والأخرى صورة فوتوغرافية ملونة".

ناظم حكمت

عبد الوهاب البياتي

ناظم حكمت
لم يسعد في حلب
طفولته فيها كانت عسلا
لكن النحل اتى بعد الخمسين
ناظم حكمت
لم يسعد في اي مكان
فهو الان
وحيدا منفياً تحت سماء
بلاد اخرى
في قبر يغمره ثلج
عصور التكوين
وكما في الرؤيا
كان معي يتأمل وجهاً
وقناعاً
لفتاة في العشرين
طارت كالنحلة واحترقت
في نار خريف البشر
أتذكره وهو يقول
بحزن الرائين
سُلطانة حبي
صُبّي الخمر لضيفي
في حلب او برلين

التحرير: على حسين
التصميم: مصطفى محمد
الاشراف اللغوي: محمد السعدي